﴿والَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ولإخْوانِنا الَّذِينَ سَبَقُونَا بالإيمانِ وَلاَ تَجْعَلْ في قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا. رَبَّنَا إنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾. صدق الله العظيم ـ سورة الحشر ـ الآية ١٠.

الفصل الثالث

فن الحرب في العصر العباسي

- ١ ـ المذهب العسكري الإسلامي.
- ٢ ـ حروب الردة.
- ٣ ـ قصة المعركة في العصر العبّاسي.
- ٤ ـ تدابير الأمن والحيطة.
- ٥ ـ الخميس والخلافة.
- ٦ ـ القوة في خدمة المجتمع الإسلامي.
- ٧ ـ الجبهة الداخلية والقدرة القتالية.
- ٨ ـ الحروب النظامية والحروب الثورية.
- ٩ ـ التجربة التاريخية للعصر العبّاسي.
- ١٠ ـ الحرية الفكرية ـ والبحث التاريخي.
- ١١ ـ الأيام الأخيرة للعصر العبّاسي.

١ ـ المذهب العسكري الإسلامي.

كانت الدعوة العباسية بمثابة حركة سياسية ـ بحسب مصطلحات الأزمنة الحديثة ـ غير أن هذه الحركة لم تكن منفصلة عن العقيدة الدينية، ولا منعزلة عنها، بل كانت العقيدة الدينية الإسلامية هي قاعدة هذه الحركة وأساسها. ولم يكن باستطاعة بني العبَّاس أن ينحرفوا عن هذه القاعدة أو أن يبتعدوا عن أساسها. فكان من طبيعة الأمور أن يبقى المذهب العسكري في العصر العباسي متلاحماً تلاحماً وثيقاً مع العقيدة الدينية الإسلامية. وبقيت أهداف الدولة العباسية مماثلة لما كانت عليه في العصر الأموي: (الجهاد في سبيل الله) و (رفع راية الإسلام) و (إعزاز الإسلام وأهله) و (الدفاع عن المسلمين في كل أرجاء الأرض). وكان لهذه الأهداف دائماً الأفضلية المطلقة على كل ما عداها من الأهداف. واستمرت العقيدة الإسلامية في توجيه المذهب العسكري، وإطلاق القدرات الكامنة في المجتمع الإسلامي وتوجيهه لبناء مجتمع الحرب والسلام في إطار تحقيق القيم والفضائل الإسلامية. وعلى هذا يمكن التساؤل: **ما هو الجديد في فن الحرب الإسلامي؟ وما هي المستجدات التي حملها العصر العباسي للمذهب العسكري الإسلامي؟**

إن تلاحم المذهب العسكري الإسلامي مع العقيدة الدينية يفترض بداهة عدم وجود تباين بين هذا المذهب العسكري في العهد الأموي عنه في العهد العباسي. فالأهداف للمذهب العسكري واحدة، أما الوصول إلى تطبيقها فهو يختلف باختلاف الظروف. ومن هنا فإن المستجدات التي طرأت على المذهب العسكري الإسلامي في العصر العبّاسي تتمثل بتنظيم الجيوش وإدارة الحرب. ولقد كان العصر الأموي هو عصر الفتوح. بينما انصرف الجهد في العصر العباسي لتوطيد دعائم الدولة، وحماية مواطنيها.

وهكذا فبينما كانت السياسة الاستراتيجية للعصر الأموي سياسة استراتيجية

هجومية، تحوّلت في العصر العباسي لتصبح دفاعية. ولقد وقعت في العصر العباسي الأول مجموعة من المعارك الضخمة مع الروم. لكن هذه المعارك لم تكن إلاّ دفاعية رغم توغّلها في بلاد الروم، سواء أيام هرون الرشيد أو أيام المأمون أو المعتصم. ولقد تولى ـ الحمدانيون ـ حماية الثغور، وغزو بلاد الروم ولكن تلك الغزوات الرائعة في أساليبها وطرائقها القتالية لم تكن أكثر من غزوات دفاعية هدفها الأول إشغال الروم بأنفسهم. وكان النصر فيها سجالاً ـ مرة للمسلمين ومرة للروم ـ في حين كان النصر مع الأمويين في معظم الأيام.

لعل أول الظواهر المثيرة في المستجدات هي ضخامة الجيوش في العصر العباسي بالمقارنة مع ما كانت عليه في العصر الأموي. فكيف استطاع الأمويون بجيوشهم الصغيرة نسبياً إنجاز تلك الفتوحات المذهلة، بينما عجزت الجيوش العباسية الضخمة عن تحقيق مثل تلك الإنجازات؟ وهل كانت جيوش العصر الأموي جيوشَ النوعية بينما أصبحت جيوش العصر العباسي جيوش الكمية أو العددية؟ أم هل كان النصر في جيوش العصر الأموي بسبب اعتمادها على العنصر العربي المسلم، بينما أدى غياب هذا العنصر النوعي الى غياب النصر الحاسم، وبالتالي تجميد الفتوحات؟

إن الإجابة على التساؤلات يكمن في مجموعة الحقائق التي أبرزها العرض السابق لمجموعة الأحداث على الجبهتين الداخلية والخارجية. فعلى الجبهة الداخلية؛ جاءت جموع الفرس؛ وسواهم؛ بعشرات الآلاف، واعتبروا أن الدولة دولتهم، فكان التكوين الاجتماعي للدولة يختلف عمّا كان عليه في العصر الأموي. بينما كان خلفاء بني العبّاس هم من نسيج عربي ـ اسلامي لا يختلف عن التكوين الأموي. ولهذا لم يكن غريباً أن يتفجّر الصراع على الجبهة الداخلية مع قيام الدولة العباسية، ولقد جنحت كثير من التفسيرات والتأويلات إلى اعتبار هذه الظاهرة بمثابة تفجير للشعوبية أو العرقية، وتلك حقيقة على ما فيها من الصحة، إلاّ أنها تفتقر إلى الدقة، وفقاً لما أبرزه عرض الأحداث، فالصراع في أساسه إنما يعود بالدرجة الأولى إلى التباين في فهم الإسلام نصاً وروحاً، شكلاً ومضموناً. وليس ذلك بسبب الاختلاف في اللغة ـ وإنما بسبب وجود رواسب جاهلية تختلف في المجتمع الفارسي أو التركي أو سواه عمّا كانت عليه

رواسب الجاهلية لدى العرب.

ولقد طرح العرب المسلمون جاهليتهم وأمكن لهم تجاوزها بفضل مدرسة الإسلام الأولى، بينما عجزت بقية الشعوب عن تجاوز جاهلياتها بمثل تلك السهولة. ولقد أدرك خلفاء بني العباس هذه الحقيقة منذ البدايات الأولى لقيام دولتهم، وعرفوا خطورتها بحكم تجربتهم في نشر الدعوة، ولهذا فقد انصرفوا بكل جهدهم لمعالجة المشكلات الداخلية، وأمكن لخلفاء العصر العباسي الأول استيعاب التناقضات المتباينة، واستئصال الظواهر الشاذة والغريبة منها. غير أن هذه الظواهر والتي استندت إلى جذور جاهلية عميقة، كانت تكتسب قوة لتتطور وتأخذ أشكالاً جديدة مع كل عملية استئصال لها. إذ كان من المحال في غمرة فترة زمنية قصيرة تجاوز الظواهر للوصول الى الجذور واستئصالها، مرة واحدة. وهكذا (**لم تكن بصائر من دخلوا الإسلام حديثاً في المجتمعات الجديدة، كمثل بصائر العرب المسلمين**). ولكن بالرغم من هذا التباين فقد كان الدين الإسلامي بقوة مضمونه، وبوفرة عطائه، كافياً للهيمنة على الظواهر جميعها. ولهذا لم يكن غريباً أن يظهر عدد من الذين انتحلوا النبوة، وهم يحملون اسم (الإسلام) ويزعمون (التجديد) وهم في الحقيقة يجهلون كل الجهل حقيقة الإسلام في تكامله، في عقائده وعباداته. هذا بالنسبة للعامة، ولقد أفاد أصحاب المطامع، وذوو الطموح، من ذلك للسير مع ـ كتل الجماهير بحسب التعبيرات الحديثة ـ لتحقيق أهداف خاصة، دنيوية بالدرجة الأولى. وسار معهم أيضاً الحاقدون على الإسلام وأهله. فهل كان هذا الموقف الداخلي ـ المتناقض والمتفجر ـ كافياً لامتصاص جهد الدولة وقدرتها؟ وهل كان من الغريب ان يجتمع قادة الترك ويتفقوا على الفتك بأمير المؤمنين المعتصم وهو في ذروة انتصاره في عمورية؟. وهل كان من الغريب ان يفتك الرشيد بالبرامكة ليسبق الزمن قبل ان يستفحل الخطر ويشتد فيعجز عن مجابهته؟.

هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية، فإن تلاحم العقيدة الدينية ـ الإسلامية ـ مع المذهب العسكري الإسلامي. وما حققه العرب المسلمون من إنجازات ضخمة وأعمال قتالية مثيرة بفضل هذا التلاحم، قد أثار أعداء الإسلام والمسلمين على الجبهتين الداخلية والخارجية، فمضوا لتقليد الإسلام والمسلمين ومحاكاتهم عبر حوار الإرادات

المتصارعة. فلا غرابة ان يحاول الروم ـ على الجبهة الخارجية ـ وأن يحاول الزنج والقرامطة وسواهم ـ على الجبهة الداخلية ـ رفع الشعارات الإسلامية ذاتها، وتطبيق الأسس القتالية ذاتها. ويمكن اعتبار هذه الظاهرة برهاناً حاسماً على قوة الإسلام في حد ذاته، ولو أن الإسلام ليس في حاجة لمثل هذا البرهان، كما يعتبر برهاناً حاسماً على ما قدمه العرب المسلمون من عطاء في مذهبهم العسكري، وليس العرب المسلمون بحاجة أيضاً لمثل هذا البرهان، ولكن المهم هو أن التطورات المستحدثة في العصر العباسي قد وضعت الإسلام ووضعت العرب المسلمين خاصة أمام اختبار عسير، وأمام ابتلاء صعب، **فكان على خلفاء بني العباس الصمود أمام هذا الاختبار، ومجابهة هذا الابتلاء. وقد تمكنوا صدقاً وحقاً من الصمود رغم ما نزل بهم من النوائب، وجابهوا الابتلاء رغم ما تعرضوا له من الكوارث والنكبات.**

لقد كان على خلفاء بني العباس ـ من أول أمرهم وحتى نهايته ـ ان يحققوا التطابق والتكامل بين العقيدة الدينية والمذهب العسكري، والقضاء على كل انحراف. ولقد استطاعوا في الواقع تحقيق هذا الهدف بنجاح رائع رغم كل ما اتهموا به من قصور وتقصير، وهو قصور لم تكن لهم إرادة فيه على الأغلب، وتقصير كان خارجاً على قدراتهم وإمكاناتهم. ولكن المهم في الأمر هو أنهم ما انحرفوا عن هدفهم، ولا حادوا عن جادة سبيلهم. ولقد وصلت دولتهم في حالات كثيرة إلى مرحلة الانهيار الكامل. ولكن وحتى في مرحلة الانهيار، بقي خلفاء بني العباس يحققون ذلك التكامل والتطابق، فهم لم يتنازلوا للزنج رغم قوتهم الكبيرة عن شيء مما يتعلق بالحدود ـ حدود الله وهو حق لا يمتلكونه أصلاً ـ ولكن التزامهم هذا كان هو الموجّه لأعمالهم جميعها. والأمر مماثل عند مجابهة حركة ـ القرامطة ـ. لم يهادنوها رغم قوتها وانتشارها، ولم يحاولوا التسليم لها رغم قدرتها. وكذلك أيضاً عند مجابهة الدولة العلوية ـ الفاطمية ـ في مصر. فخاضوا الصراع المرير ضدها عبر مئات السنين في إطار اتجاه ثابت ونهج واضح. فهل انتصر خلفاء بني العباس بفضل تمسكهم بالعقيدة الإسلامية ديناً وبالمذهب العسكري تطبيقاً والتزاماً؟ أجل. لقد نصروا الله فنصرهم، ويسّر لهم السبل لتطبيق المذهب العسكري. تلك حقيقة لا تقبل الجدل أو النقاش وفقاً لما أكدته

التجربة التاريخية عبر العرض السابق - في الفصلين الأول والثاني -. ولكن كيف تم ذلك؟

لقد وقف خلفاء بني العباس على قمة هرم الدولة وهم يرقبون ما حولهم. بقلب مؤمن وعقل متفتّح، فوجدوا مراكز القوى المتناثرة، هذه المضادة للإسلام والمسلمين، وتلك الملتزمة بكتاب الله وسنة رسوله. فكان الحل الأوحد هو في دعم هذه ضد تلك. وحشد القوى ضد الاتجاهات المنحرفة، وضرب مراكز القوى بعضها ببعض، ولقد اتهم - المستشرقون والمستغربون - خلفاء بني العباس بالمكر والخبث وسوى ذلك من الأوصاف والنعوت لهذا الدور الموصوف - بالدور السياسي - الذي اعتمد على ضرب مراكز القوى بعضها ببعض؛ وتأليب بعضها على بعض، واستثارتها بعضها ضد بعض. فهل كان باستطاعة خلفاء بني العباس تحقيق التطابق المطلوب والوصول الى التكامل بين الهدف والوسيلة بغير ذلك؟. وهنا لا بد من وضع الأحداث في إطاريها الزمني والمكاني. فلقد كان من المحال في تلك الحقبة الزمنية ضمان - مركزية الدولة - بشكل دائم. وكانت المساحة الجغرافية الشاسعة لاقاليم العالم الإسلامي، وصعوبة الاتصالات، وما تتطلبه التحركات من فترات زمنية متطاولة، ثم تعاظم قدرة مراكز القوى بما تضمه من طاقات بشرية ضخمة، وغير ذلك من العوامل، هي مما فرض القيود على عمل القيادة العليا الممثلة - بالخليفة أمير المؤمنين -. وقد يكون من الصعب عند استعراض مسيرة الأحداث افتراض حلول للمشكلات أفضل من تلك التي تم تطبيقها في إطاريها الزمني والمكاني.

لقد تشكّلت مراكز القوى، ولم يكن لأمراء المسلمين - أو الخلفاء - دور في تشكيلها، وفرضت مراكز القوى هذه وجودها بقوة السلاح، فكان لا بد من ضربها بعضها ببعض، فأما الزبد فيذهب جفاء. وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض. وهكذا كان. ولقد جاءت النتائج كلها لتبرهن على صحة الإجراءات التي اتخذها خلفاء بني العباس. وهذا ليس دوراً سياسياً بقدر ما هو دور عقائدي ثابت يتلاحم فيه المذهب العسكري بالعقيدة الدينية.

لقد قيل ـ فيما قيل ـ بأن هذا الدور السياسي هو نوع من ـ الماكيـافيلليه أو الذرائعية ـ وقيل أيضاً بأن الخلفاء من بني العباس قد فقدوا القدرة على توجيه الأحداث والسيطـرة عليهـا ولم يبـق لهم مـن الخلافـة إلا رمـزهـا ـ الدعـاء والبردة والقضيب ـ فما هو نصيب مثل هذه المقولات من الصحة ؟

إقراراً بالواقع، لقد انحل أمر الخلافة في مرات كثيرة، وتحكم عدد من قادة مراكز الخلافة بالخلفاء ـ في قتلهم وعزلهم وتنصيبهم ـ. ولكن وحتى في مثل هذه الحالات، فقد استمر أمراء المؤمنين في ممارسة دورهم من خلال مبدأ ـ الطاعة والجماعة ـ. واحتفظ الخلفاء بهيمنتهم الروحية ـ المعنوية ـ وهذا ما ساعد الدولة العباسية على النهوض بعد كل كبوة، ومكّن لها من الاستمرار رغم كل المعوقات والعقبات. ومهّد لها لاستعادة قدرتها بعد كل انهيار أو ضعف. ومرة أخرى، لم يكن ذلك إلاّ نتيجة طبيعية من نتائج تلاحم المذهب العسكري بالعقيدة الدينية. فالفضل كلّه للإسلام وما يتضمنه من قدرة ذاتية وللخلفاء المسلمين الذين لم تحرفهم التيارات القوية، ولم ترهبهم اعمال القتل والعزل، لينحرفوا عن هدفهم في خدمة الإسلام وأهلـه من خلال تحقيق التطابق بين الهدف والوسائل. ولهذا، وحتى في أشدّ الظروف قسوة، وأحلكها قتامة، بقي الخلفـاء هـم المنـارات التي يلـوذ بها المسلمـون لتجـاوز محنهـم وللخروج من نوائب أيامهم قد تظهر القضية للوهلة الأولى؛ وعلى ضوء ما سبق ذكره، على أنها قضية دفاع عن الخلافة العباسية، أو صداً لافتراءات ألصقت بأمراء المسلمين من بني العباس. ولكن الأمر ليس كذلك. ولو أنه من واجب كل انسان مسلم الدفاع عن فضائله وقيمه قدر استطاعته؛ بل وبأكثر مما تحمله طاقته. إن القضية ببساطة هي التأكيد على حقيقة تاريخية برهنت التجارب المتتالية على صحتها: منذ أقدم العصور وحتى الأزمنة الحديثة، فقضية التلاحم بين المذهب العسكري وعقيدته التي استمد أسسه منها، هو المبدأ الثابت في حياة كل أمة احتلت مكانتها اللائقة بها تحت الشمس. ولعل التاريخ لم يعرف تجربة طويلة الأمد، حفلت من الغنى بالدروس كمثل التجربة الإسلامية التي نسج العرب المسلمون سداها ولحمتها، ثم تابع المسلمون في كل أرجاء الدنيا الأخذ بنهجها والسير على هـداهـا. وحتى أولئـك الذيـن عـارضـوهـا

وقاوموها، لم يسعهم إلاّ الأخذ بظواهرها وفقاً لما تراءت لهم، أو بحسب إدراكهم لها.

ما كان أمراء المسلمين من خلفاء بني العباس نسيجاً واحداً على كل حال، لا في قدراتهم وامكاناتهم ولا في درجة تقواهم وورعهم، فهم عبيدالله، وبينهم من التباين والاختلاف أكثر ما بينهم من التشابه والتماثل. ولكن بالرغم من ذلك فقد كان هناك ثمة التزام كامل بتعاليم كتاب الله وسنة رسوله، وكان هناك تبعاً لذلك وضوح كامل في المذهب العسكري المشتق عن العقيدة الإسلامية. ولهذا كان يتم تطبيق المذهب العسكري تبعاً للظروف المحيطة بكل واحد منهم. وعلى سبيل المثال؛ فقد جرد الرشيد حملة ضخمة لتأديب ملك الروم عندما حاول النيل من دولة الإسلام ومن المسلمين. وفعل المعتصم كمثل فعله، وعجز آخرون عن فعلها، فلجؤوا إلى ـ الفداء ـ والى المهادنة، ولكن مع الحرص على حدود دولة الإسلام وهيبتها وسلامة مسلميها وضمان أمنهم. وبقيت الغاية أو الهدف واحداً، لم يتبدّل، ولم يتغير، ولكن جرى التباين في وسائل بلوغه وتحقيقه.

لقد فرض المذهب العسكري الإسلامي وجوده سواء على جبهات الحروب الخارجية، أو على مراكز القوى المتصارعة على الجبهة الداخلية. وهذا ما يفسّر تشابه الأعمال القتالية، وتماثل أساليب إدارة الحرب. وهذا ما يفسّر أيضاً صعوبة الصراع المسلّح الذي خاضه المسلمون سواء على جبهتهم الداخلية أو الخارجية. وتعتبر هذه الأعمال القتالية النموذج الأمثل لحالات أو أشكال الحرب المختلفة: الأهلية، الدينية، الثورية، النظامية التقليدية. ويمكن عند استقراء تلك الأعمال القتالية ملاحظة استطالات أشكال هذه الحروب بحيث أنها تحاكي حروب الأزمنة الحديثة. وهذا ما يعطي للدروس المستخلصة من تلك الحروب أهميتها الكبرى باعتبارها عطاء مميّزاً من عطاءات (فن الحرب الإسلامي) ورسوخ أسس هذا الفن في أزمنة لم تكن فيها مثل هذه الأسس معروفة ـ ربما ـ في كل أرجاء العالم.

تحتاج المجتمعات الإنسانية ـ مثلها كمثل جسم الإنسان ـ إلى نقطة ترتكز إليها هي **(نقطة التوازن والدفع)** كيما تتمكن من المحافظة على ثباتها واستقرارها وقدرتها على

التقدّم والتحرك. **فأين كانت نقطة التوازن والدفع في المجتمع العباسي الحافل بكل أنواع الهيجانات والاضطرابات؟ وكيف استطاع امراء المسلمين من بني العباس الخروج من كل انتكاسة وهم اكثر قوة وأوفر قدرة وأعز منعة؟. وأين كان مركز الثقل والتوازن هذا؟**

لقد كان مركز الثقل، وكانت نقطة التوازن والدفع - في جماهير السنة الذين بقوا وهم يشكلون القاعدة الواسعة في المجتمع الإسلامي حتى في أشد الظروف وأكثرها قسوة وأحلكها ظلمة. وكانت جماهير المسلمين من السنة تنظر إلى أمير المؤمنين على أنه ملاذها لإقامة حدود الله على أرض الله. ولهذا كان من الطبيعي أن تنتصر هذه الجماهير لأمير المؤمنين كلما انحل عقد الخلافة، وكلما ضعف شأنها. وكانت هذه الجماهير التي غلبت على أمرها أيضاً في مرات كثيرة، تقاوم الانحرافات بطرائق مختلفة تستجيب لكل حالة من الحالات فكانت تقف موقف السلبية من الانحرافات، وتمتنع عن الانجراف في تيارها. إذ لم تجد لديها القدرة لمقاومتها. وكانت تنتقل إلى المقاومة الإيجابية - المسلحة - كلما واتتها الفرصة لاستخدام أسلحتها. وكانت في الحالات كلها تقف متربّصة، متحفّزة، لمجابهة البدع والضلالات، محققة بصورة أصيلة ما هو مطلوب من تحقيق التطابق والتكامل بين الحدود ومتطلبات الواقع. وهكذا كان كل انتصار لهذه الجماهير هو انتصار لأمير المؤمنين، وكانت كل انتكاسة لأمير المؤمنين هي خروج على إرادة جماهير السنة. ونشأ عن هذا العامل المشترك وحدة في المواقف، وهي المواقف التي كان لها دورها الأساسي والحاسم في الحد من غلواء الحركات الهدامة ومنع تطرفها، ثم امتصاصها وتقويمها، إلى ان يصل الأمر إلى مرحلة تدميرها والقضاء عليها وتصفية وجودها المادي والفكري. ولقد ضمت الأوابد التاريخية أمثولات لا نهاية لها عن تصدي جماهير بغداد السنة، لانحرافات الشيعة ومقاومتها بضراوة وعنف، ووقفت جماهير السنة في دمشق مرات كثيرة ضد تسلط المذاهب المنحرفة - كالقرامطة - مثلاً. وحتى في افريقية - قاعدة انطلاق الدعوة الشيعية العبيدية التي كانت مهد الدولة العلوية الفاطمية - ألم تعمل هذه الجماهير - وفي ليلة واحدة - على تدمير كل قواعد التشيع وتقضي على أصحابها ودعاتها، وتتخلص من رموزها وانحرافاتها؟ فهل كان بالمستطاع

تحقيق ذلك لو لم تكن قواعد المسلمين السنة قوية إلى درجة كافية، وصلبة إلى درجة رائعة؟ ثم ألم تهتز بغداد ـ وسائر بلاد المسلمين ـ كلما خرج الروم بانتصار لهم، مما كان يحمل الخليفة وحتى مراكز القوى المسيطرة على الخلافة ـ للسير مع جماهير المسلمين من أجل تحقيق التطابق بين العقيدة الإسلامية ـ ومذهبها العسكري. وتحكيم السلاح لمجابهة كل عدوان؟ ويظهر من ذلك ان مواقف جماهير المسلمين السنة كانت واحدة في مجابهة الأعمال العدوانية الخارجية وفي مجابهة الانحرافات الداخلية.

وكانت هذه المواقف بدورها مطابقة ـ على الأغلب ـ لمواقف أمراء المسلمين من الخلفاء العباسيين. ولهذا كان دور هذه الجماهير كبيراً في تسلم القيادة عندما تضعف الخلافة والاستسلام لقيادة الخلافة عندما تقوى هذه الخلافة وتشتد، فكان ذلك الالتقاء بين الخلافة ـ القمة ـ وجماهير المسلمين السنة ـ القاعدة ـ هو نقطة التوازن وهو مركز الثقل والدفع.

قد يكون من العسير؛ إن لم يكن من المحال؛ الإفتراض بأن المسلمين من السنة، كانوا جميعاً على درجة واحدة من اليقين والبصيرة، أو كانوا على درجة واحدة من القدرة على الصمود والمقاومة، أو أنهم كانوا متساوين في صلابتهم وحزمهم واستعدادهم الدائم للقتال والجهاد. ولهذا فكثيراً ما كانت مسيرة الأحداث تجرف في تيارها الصاخب كثيراً من المسلمين فيسيرون في تيار الانحراف ويخرجون على الطاعة والجماعة على غير إرادة منهم أو بالتقليد الأعمى، أو سعياً وراء مغانم يغنمونها من عرض الدنيا.

وهنا يأتي دور القيادة الرائدة المتمثلة بالرجال الأتقياء من القضاة والأئمة ممن تتوافر لهم قدرات اكبر من تلك المتوافرة لسائر الناس. فكان هؤلاء هم الذين يتصدون لمجابهة التيار. ولقد ضمّت الأوابد التاريخية شواهد كثيرة عن هؤلاء العلماء والفقهاء والقضاة والأئمة ممّن رفعوا المنارات في وسط الظلمة. ولقد سقط كثيرون منهم ضحايا مواقفهم الثابتة، إلاّ انهم استطاعوا بأمثولاتهم الفاضلة وتضحياتهم الكبيرة وجهودهم المستمرة، ايقاظ الوعي وتصحيح المواقف وإحباط المقولات المنحرفة، وكانت اعمالهم الدؤوبة هي التي أدّت في النهاية إلى حدوث التغييرات الحاسمة، وإعادة

الجماهير ـ من ابناء السنة ـ للسير في تيار واحد، لا يعمل إلاّ بما جاء في كتاب الله وسنة رسوله. فهل من غريب إذا ما كان اعتماد امراء المسلمين من خلفاء بني العباس، كبيراً على مثل هؤلاء؟ وهل كان غريباً إذا ما استجاب المسلمون لهؤلاء الذين لم تأخذهم في الله لومة لائم؟

لقد كان الفضل، كل الفضل للإسلام الذي أوجد هذا النظام الاجتماعي المتكامل والمترابط والمتلاحم. ولقد جاءت تجربة العصر الأموي، ثم تجربة العصر العبّاسي الأول لتزيد من رسوخ هذا النظام. ولتبرهن المرة بعد المرة على قدرته للصمود في وجه التحديات والانحرافات، فكان أمراً طبيعياً أن يستمر الالتزام به من جانب المسلمين حكامهم ومحكوميهم، امرائهم وأجنادهم وجماهيرهم.

وكان المذهب العسكري الإسلامي بنتيجة ذلك هو الأرضية الواحدة التي يقف عليها امراء المسلمين من خلفاء بني العباس، ومعهم جماهير المسلمين وجموع المجاهدين في سبيل الله، وعلى هذه الأرضية كانت العلاقات تتزايد ثباتاً ووثوقاً بين مراكز القوى المتخصصة ـ أو التي نذرت نفسها للجهاد في سبيل الله مثل الحمدانيين وآل سبكتكين وسواهم وبين امراء المسلمين الذين لم يكن لهم على مثل هؤلاء إلاّ التوجيه والطاعة والولاء مقابل الحصول على الدعم المعنوي والدعم المادي عندما تتوافر الظروف لتقديم مثل هذا الدعم.

يظهر استعراض تاريخ الحمدانيين وآل سبكتكين ـ خاصة ـ نوع تلك العلاقة التي كانت قائمة بين مراكز القوى هذه وبين دار الخلافة. فلقد حاول الحمدانيون في بداية ظهورهم فرض وجودهم على أمير المؤمنين، والتحكّم بالخلافة وحتى إظهار التمرد عليها. فوقعت بعض المعارك والاشتباكات حتى عاد الحمدانيون الى رشدهم، واعلنوا خضوعهم والتزموا بتقديم ما هو مفروض عليهم من الأموال. وعندما انصرف الحمدانيون للجهاد، لم يكن لأمير المؤمنين عليهم إلاّ التوجيه، وإعطاء صفة الشرعية لأعمالهم بالموافقة عليها مع تقديم الدعم. أما آل سبكتكين فقد انصرفوا منذ بداية ظهورهم للجهاد في سبيل الله على أقصى حدود الشرق ـ مع الهند خاصة ـ. وكان كل

ما يطلبونه من امير المؤمنين هو الدعم المعنوي والموافقة على توليتهم ما يفتحونه من بلاد ، وما يخضعونه من أقاليم. وكان الخليفة يرسل إليهم الهدايا والخلع مع كل انتصار يحققونه. فكان امراء بني حمدان وآل سبكتكين ومن جاء بعدهم كالسلاجقة وبني عقيل والمروانيين وسواهم يتمتعون بحرية العمل العسكري كاملة. وكانت أعباء الجهاد ونتائج أعمال القتال تقع على عاتقهم. وهكذا. كان حكم الأقاليم لمثل مراكز القوى هذه يمثل شكلاً من أشكال ـ الإدارة المحلية الذاتية ـ. فكانت الموارد المالية بالتالي تصرف للحرب ولتغطية نفقات الحرب وتجهيز القوات. **وكانت دار الخلافة في مثل هذه الحالات تمثل السلطة الرئاسية بمفاهيم الأزمنة الحديثة.** وقد يكون من الخطأ الكبير تشبيه نظام الخلافة بالنظام الرئاسي ـ الديموقراطي ـ ذي السلطة المركزية القوية. بالاعتماد على فترة زمنية معينة ـ مثل العصر العباسي الأول أو تشبيه هذا النظام بنظام الولايات ذات الاستقلال الذاتي والتي تشترك بموازنات واحدة وتمثيل خارجي واحد وقوات مقاتلة ذات قيادة واحدة وذلك بالاعتماد أيضاً على فترة زمنية معينة ـ مثل العصر العباسي في عهده المتأخر. وإنما يمكن القول ان علاقة دار الخلافة بالولايات ومراكز القوى كانت متطورة باستمرار ولكن ضمن إطار عوامل ثابتة لا تتغير ـ الطاعة والجماعة وإقامة الحدود وإعلاء شأن الإسلام وأهله والدفاع عن الإسلام وأهله.

لقد كان أمراء المسلمين من خلفاء بني العبّاس، يعرفون بحكم تجاربهم المتتالية أن اعتمادهم على بعض مراكز القوى المتّفقة في الهدف مع دار الخلافة، قد يضعف من أمر الخلفاء، بسبب ما يتوافر لمثل هذه المراكز من حرية العمل العسكري. وعلى الرغم من ذلك، فقد كان امراء المسلمين على استعداد دائم للتنازل عن كثير من امتيازاتهم وسلطاتهم. طالما أن باستطاعة هذه المراكز الاضطلاع بالواجب وتنفيذ ما هو مطلوب لتحقيق الهدف. ومقابل ذلك، فقد كان قادة مراكز هذه القوى على استعداد للانسحاب من مسرح الأحداث إذا ما فشلوا في الاضطلاع بواجباتهم. وهو ما برهنت عنه مسيرة الأحداث في مرات كثيرة، فالملك لله وحده، والأرض أرض الله، والمال مال الله. والجميع عبادالله. وفي اطار هذه القيم. قد يكون من المحال تشبيه العلاقات في المجتمع الإسلامي بأي علاقات في أي مجتمع من المجتمعات الأخرى.

٢ ـ حروب الردة.

لقد شن أبو بكر الصديق رضي الله عنه حرباً شعواء على أصحاب الردة، لأنهم أرادوا الخروج على الطاعة والجماعة، ولأنهم حاولوا انتهاك حدود الله ـ الزكاة والصلاة ـ وقصة مسيلمة العنسي ـ الكذاب ـ وقصة سجاح وسواها من القصص المعروفة، ولعل أصدق تصوير لما كانت تمثله الردة هو ما قاله أبو بكر الصديق رضي الله عنه عندما شبه انتهاك حدود الله بالخرق في الثوب يتزايد اتساعاً إذا ما ترك، ولهذا بادر إلى رتقه وسير عشرة جيوش فأمكن له خلال عام واحد القضاء على المرتدين وتدمير قواعد الردة. وحدثت بعد ذلك فتن كثيرة، فأعداء الإسلام والمسلمين لم يلقوا أسلحتهم، بل إنهم زادوا شحذها واتبعوا أساليب اكثر مكراً واكثر خبثاً ولؤماً عندما لجؤوا إلى سلاح التفجير من داخل المجتمع الإسلامي. ولقد عرف العصر الأموي فتناً كثيرة قاد بعضها ـ الخوارج ـ وتولى قيادة بعضها الآخر الطامحون أو الطامعون؛ ولكن لم تكن هذه الفتن في معظمها تتجاوز حدود الخروج عن الطاعة والجماعة، ولم تصل إلى مرحلة انتهاك حدود الله. فقد تعلم الجميع من تجربة ـ حروب الردة ـ أن انتهاك حدود الله هو السلاح المفلول. ولكن ومع زوال الحكم الأموي، وانقضاء العصر العباسي الأول، أخذت الفتن والحركات في الانحراف تدريجياً عن إطارها لتصل إلى مرحلة انتهاك الحدود عبر الأخذ بتفسيرات ومقولات ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب. وكان التشيع والذي ابتدعه اليهودي ـ عبدالله بن سبأ ـ لتفجير الفتنة الكبرى وقتل عثمان رضوان الله عليه هو السلاح الذي استخدمته معظم الحركات المنحرفة التي أرادت الخروج على الطاعة والجماعة.

لقد أظهرت مسيرة الأحداث ـ في عرض الفصل الأول ـ كيف تطورت ثلاث من اكبر الحركات التي عرفها العصر العباسي ـ ثورة بابك الخرمي وثورة الزنج وثورة القرامطة، ثم قيام الدولة العلوية ـ الفاطمية ـ في مصر. وكانت كل حركة من هذه الحركات هي المهد لنشوء حركة اكثر قوة واكثر اتساعاً للحركة التالية لها. وتطرح

هذه القضية مجموعة من التساؤلات؛ مثل: كيف استطاعت هذه الحركات خداع جماهير المسلمين وتضليلها؟ وكيف أمكن لمثل هـذه الحركـات تحقيـق مثـل ذلـك الانتشـار الواسع؟ وهل كان هناك ثمة خلل أو ضعف في تكوين المجتمع الإسلامي حتى ظهرت مثل هذه الحركات وتعاظمت؟ لا بد قبل الإجابة عن هذه الأسئلة ـ وأشباهها ـ من العودة إلى استخلاص الحقائق التي أبرزتها مسيرة هذه الحركات وتطوراتها. وبإيجاز: لقد حاولت ثورة الزنج، ومن بعدها ثورة القرامطة، اجتذاب العرب المسلمين اليها. ولكنها فشلت في ذلك، فلم ينضم إليها سوى نفر قليل. **فكان اعتمادها بالدرجة الأولى على العنصر غير العربي. وكانت هذه الثورة موجهة بعامل الحقد، وقد ظهر ذلك في اعمال كثيرة، مثل مطاردة بني هاشم في البصرة عندما أحرقها الزنج، ومثل اقتلاع الحجر الأسعد من مكة المكرمة وأخذه ـ والأهم من ذلك كله: هو أن هذه الثورات ما جردت سيوفها إلا ضد المسلمين، وما عملت إلا ضد بلاد المسلمين.** وصحيح أنها كانت مركزة ضد العرب المسلمين خاصة، إلا أنه كان من المحال عدم إلحاقها الأذى بالمسلمين عامة. ولهذا فإنها تشترك بمجموعة من القواسم التي تلتقي مع حركة الردة الأولى التي ظهرت في عهد الخليفة أبي بكر الصديق رضوان الله عليه.

لقد استطاعت تلك الحركة اجتذاب الآلاف، وكان اعتمادها على ـ العصبية القبلية ـ وبتعبير اكثر دقة، اعتمدت على العودة إلى الجاهلية ـ في ظاهرها وفي هدفها ولو أنها لم تتنكر تنكراً تاماً للإسلام. كذلك الأمر بالنسبة لحركات الردة التالية: إنها لم تتنكر للإسلام، بل إنها رفعت رايات الإسلام. وحملت شعارات إسلامية واعتمدت على عصبية جديدة. عصبية اللون ـ الزنج ـ وعصبية المذهب ـ القرامطة ـ. ولم يكن من الصعب في مثل هذه الحالات اجتذاب عشرات الآلاف وليس الآلاف. فلقد اتسعت آفاق العالم الإسلامي؛ وحصلت هجرات واسعة عبر الاقاليم، وتبدل التكوين الاجتماعي، واستنفر الإسلام كافة القوى في المجتمعات التي دخلها، ووضعها تحت السلاح. فكان الاحتكام إلى السلاح أمراً طبيعياً لإعادة العجلة إلى عصر الجاهلية، عصر القبيلة المسلحة التي تعيش بالغزو وللغزو وتعتمد على قوة السلاح. وكذلك لم

يكن من الصعب أن يظهر في مثل هذه المجتمعات رجال لديهم الاستعداد لممارسة دور قيادي. من طراز مسيلمة الكذاب ـ. وقد يكون من المحال الافتراض بأنه في استطاعة الدولة الإسلامية ـ العباسية ـ ضمان السيطرة على كافة الأقاليم في اطار مركزية قوية، بصورة دائمة. ويظهر ذلك مدى التطور الكبير الذي اكتسبته حركات الردة الجديدة: مثل الزنج والقرامطة ـ سواء في مجال الفكر، أو في مجال التنظيم، أو في مجال ادارة الحرب؛ بحيث كانت قادرة على نشر شبكاتها الواسعة في اقاليم متباعدة، تضعف فيها سيطرة الدولة، مع الاختيار المناسب لعامل الوقت لتفجير الثورة.

لقد استحوذت هذه الثورات ـ في الأزمنة الحديثة خاصة ـ على اهتمام الباحثين من المستشرقين ومن المستغربين. كل ينظر إلى أحداث الثورات من زاوية معينة، ومن خلال متطور محدد، وللبرهان على نظريات مسبقة هدفها النيل من الإسلام وأهله، وللتأكيد على عجز الإسلام عن استيعاب ما يطلق عليه حديثاً اسم ـ التناقضات الاجتماعية ـ. أو للبرهان على انحلال أمر الإسلام في فترة قريبة من صدر الإسلام. وليس المجال هنا هو مجال الدخول في جدل عقيم مع من يريدون تفسير احداث التاريخ على ضوء قيم ومفاهيم لا تتناسب مع الظروف الزمنية والجغرافية لوقوع تلك الأحداث. فالقضية ببساطة هي قضية صراع بين الإسلام وبين القوى المضادة للإسلام. وإذا كان عهد هذه الثورات قريباً من صدر الإسلام. فإن عهد الردة الأولى ـ ردة مسيلمة وسواها ـ هي لعهد النبوة أقرب، وهي بظهور الإسلام أقرب. فهل كانت الردة الأولى مغايرة للردات التالية؟.

وهل كان هناك ثمة اختلاف في أهداف هذه الردات جميعها؟ ألم تشترك جميعها بمجموعة من الظواهر؟ ألم تسلك نهجاً واحداً؟ أليست وحدة الهدف، ووحدة الوسائل كافية ـ من الناحية العلمية التاريخية لتصنيف حركات الردة جميعها في زمرة واحدة؟.

لقد فرض الإسلام قيوداً صارمة لبناء المجتمعات الجديدة. وكان من طبيعة الأمور أن يستثقل نفر من الناس هذه القيود، فيحاولوا التحلل منها، والتحرر من التزاماتها. ألم تستثقل قريش من قبل قيود الإسلام وضوابطه، فجاء مسيلمة ليسقط الزكاة ولينقص من عدد الصلوات؟ فماذا فعل بابك الخرمي اكثر من زيادة حجم هذا التحلل

والتحرر ؟ وماذا جاءت ثورة الزنج بأكثر مما تضمنته حركة بابك الخرمي ؟ ثم ماذا فعل القرامطة اكثر من السير بشوط التحلل والتحرر حتى نهايته ؟ وماذا كانت النتيجة ؟ ألم ينفر أصحاب هذه المذاهب من التحلل الذي كان لا بد أن يصل إليهم في النهاية ؟ إنه صراع ثنائية الخير والشر ، صراع الفضائل والرذائل ، صراع الالتزام والتحلل . وهو ما أوضحته تعاليم الإسلام وأكدته باعتباره ظاهرة انسانية متلاحمة مع طبيعة الإنسان ذاته ، وهي الطبيعة التي ما جاء الإسلام إلا لإصلاحها وتشذيبها وتوجيهها لما فيه خير المجتمعات البشرية ـ الإنسانية ـ . وإن استعراض مسيرة احداث هذه الثورات وتطوراتها لا يخرج على هذه الحقيقة ، ولا ينحرف عنها .

لقد تولى علماء الكلام وفقهاء الإسلام الرد على فكر المنحرفين؛ أئمة الملل والنحل ، وزعماء الحركات الثورية . وليس المجال هنا هو مجال التصدي لإيديولوجياتهم ومثلهم وأفكارهم . ولكن قد يكون من المهم التعرض لنهجهم في العمل وأسلوبهم .

يظهر الزعيم؛ والذي تتوافر له بالتأكيد كفاءة قيادية عالية ـ أوكاريزما قيادية ـ فيبدأ بالبحث عن مجال لنشر أفكاره ، ويتحسس طريقه بحذر شديد ، وفي إطار من السرية ، ويعتمد على الرموز والغموض في نشر دعوته . ويبدأ باستقطاب من يظهر لديهم الاستعداد للعمل ، فيعدهم ويمنيهم وينظمهم ، وينطلق الدعاة وهم يتظاهرون بالورع والتقوى والزهد ، ليبثوا أفكارهم ـ الاصلاحية بحسب ما يزعمون ـ حتى إذا ما توافرت لهم قدرة كافية أخذوا في البحث عن قاعدة لعملياتهم ، وتبدأ هذه العمليات بمهاجمة مفارز صغرى وقوات منعزلة لإحراز انتصارات صغيرة ومضمونة ، ثم ينتقلون وهم في حالة تحرك دائم من مكان إلى آخر وهم يجمعون المعلومات عن كل تحرك مضاد ، ويعتمدون على إشاعة الرعب ، وبث الذعر ، لتحييد المقاومات ، وعزل القوات المقاتلة . وتتجمع الانتصارات الصغرى لتفسح المجال أمام انضمام قوات جديدة ترفد الثورة بالمزيد من القوة والقدرة . ويرتبط العمل العسكري بالعمل السياسي أو العمل الاعلامي في وسط الجماهير ، بحيث تحظى قوات الثورة بالمزيد من الدعم المادي والمعنوي ، مما يزيدها رسوخاً ومنعة وقدرة على الاستمرار والتطور .

وتستفيد الثورة من ردود فعل أمراء المدن وحكامها والتي غالباً ما تأتي متأخرة. كما تستفيد من الهجمات المتفرقة التي تشنها عليها القوى المعادية، لحشد اكبر حجم ممكن من القوى، مما يساعد على احراز التفوق وتحقيق الانتصارات الكبيرة بثمن محدود. الأمر الذي يساعد على انتشار الثورة واتساع نطاقها لتشمل أقاليم جديدة. ويبقى الإرهاب وأعمال القتل والإبادة والنهب ونشر الشائعات هو السلاح الأول للثورة للسيطرة على السلطة من الداخل، ولاكتساب الانصار والمؤيدين في وسط السلطة الحاكمة. وقد ظهر من خلال مسيرة أحداث الثورات ـ الزنج والقرامطة والعلويين ـ أن هذه الحركات تمكنت من اكتساب الانصار في وسط وزراء أمراء المؤمنين، وضمن قياداتهم. ويبقى الحصول على المعلومات هو الوسيلة وهو الهدف في كل تحرك. فهو الوسيلة للتحرك في الوقت المناسب، وهو الهدف لإقناع قيادات الخصم بعجزها وقصورها، وبالتالي تقييد حرية عملها العسكري.

وتحرص قيادة الثورة خلال مراحل تطورها المختلفة على إقامة عدد من القواعد العسكرية التبادلية، بالإضافة إلى قاعدتها الأساسية والصلبة ـ مثل **هجر** بالنسبة للقرامطة **وريف البصرة** بالنسبة للزنج. وذلك حتى لا تتعرض القاعدة الاساسية للتدمير، وبحيث لا يتم الإجهاز على الثورة أو تصفيتها إذا ما تعرضت الثورة لانتكاسة. مع السيطرة على الطرق ومحاور العمليات ومراقبتها بشكل دائم، لإحباط كل مباغتة محتملة. وتحصين مناطق العمليات بدعم الموانع الطبيعية. ولقد كان كل قصر من قصور الزنج، وكان كل موقع للقرامطة بمثابة قلعة حصينة قادرة على الدفاع عن نفسها لمدة طويلة. وقد تتعرض قوات الثورة لانتكاسة أو هزيمة، وهنا تتحرك قيادة الثورة بسرعة كبيرة لزج قواتها واعادة تنظيمها واحراز انتصارات ـ ولو كانت هذه الانتصارات صغيرة ـ بهدف المحافظة على الروح المعنوية لقوات الثورة، وللبرهان للخصم على عجزه عن قمع الثورة، وأن الانتكاسة أو الهزيمة لن تعيق الثورة عن متابعة مسيرتها وتطورها. ويمارس العامل المعنوي ـ النفسي ـ الدور الأساسي والحاسم في بقاء الثورة وتطورها. ولهذا فإن الانتقام والثأر هما ظاهرتان ملازمتان لكل تحرك. فلقد أحرق الزنج مدينة البصرة لأنها تصدت لثورتهم وقتلت بعض رجال الثورة. وفعل

القرامطة كمثل فعلهم في مرات كثيرة. وتتوافق هذه الأعمال الانتقامية مع العوامل الأساسية المحرضة للثورة وأولها ـ الحقد والكراهية ـ. وهكذا تتحكم في وسط الثورة قيمتان متضادتان. فالسلم والأمن والمحبة والاخلاص المتبادل هي القيمة المهيمنة على الثورة من الداخل، والقتل والفوضى والحقد والغدر هي القيمة المهيمنة على التعامل مع القوى المضادة. وقد تكون القيمتان المتضادتان السابقتا الذكر هما من الأمور الطبيعية الملازمة لكل تكتل بشري يريد المحافظة على وجوده وحماية نفسه. ولكن انفصال القيمتين المذكورتين عن الفضائل التي جاء بها الإسلام هو الذي حرم تلك الثورات من رصيدها المعنوي، حتى في وسط الذين عملوا مع الثورات أو الذين شاركوا فيها. وكان ذلك أحد الأسباب الرئيسة لانهيار البنيان الداخلي لتلك الثورات.

لقد عاشت ثورة بابك الخرمي في الفترة (٢٠١ـ٢٢٣ هـ) وعاشت ثورة الزط (٢١٩ـ٢٢٠ هـ) وعاشت ثورة الزنج (٢٥٥ ـ ٢٧٠ هـ) وعاشت ثورة القرامطة (٢٧٨ ـ ٣٧٨ هـ) وعاشت الدولة العلوية ـ الفاطمية ـ (٢٩٦ ـ ٥٦٧ هـ). فماذا يعني هذا التسلسل؟ وماذا يعني التفاوت في الفترات الزمنية التي عاشتها كل حركة من هذه الحركات الرافضة؟ لقد اكتسبت هذه الحركات قدرة متزايدة مع مرور الزمن، واستطاعت الدولة العباسية القضاء على ثورة الخرمي بشيء من الصعوبة، وأمكن لها القضاء على ثورة الزط بشيء من الجهد، وتوافرت لها القدرة للقضاء على ثورة الزنج بجهود اكبر، وبحشد امكانات اكثر. حتى إذا ما جاءت ثورة القرامطة، كانت الدولة العباسية قد استنزفت قدراتها وإمكاناتها بمثل هذه الحروب، علاوة على ما كانت تتطلبه الحروب الخارجية من الجهد. والأمر مماثل بالنسبة لشمال افريقية ـ المغرب العربي ـ الإسلامي، حيث تظهر مسيرة الأحداث أن أمراء مصر وإفريقية تمكنوا من الاجهاز على كل محاولات الردة. حتى إذا ما جاءت الحركة العبيدية، وجدت بأن الظروف قد باتت مناسبة لتطوير حركة الردة والوصول بها إلى مستوى إقامة دولة منافسة للدولة العباسية. وهكذا فإن حركات الرافضة، أو الحركات المتتالية للردة قد استنزفت قدرة الدولة عبر حروب الردة المتتالية. فالرافضة الذين لم يجردوا سيوفهم إلا ضد المسلمين، ولم يشهروا أسلحتهم إلا ضد المسلمين،

كانوا سلماً على أعداء الإسلام والمسلمين وقد أظهر العرض لأحداث ـ حروب الردة هذه ـ مدى ما نزل بالمسلمين من الدمار والقتل والنهب على أيدي المرتدين؛ مما أضعف قدرة الدولة التي لا تستمد قوتها إلا من قوة مواطنيها وأبنائها. ولقد استطاع خليفة رسول الله ﷺ انهاء حروب الردة في سنة واحدة. واستطاع المعتضد العباسي والموفق القضاء على ردة الخرمي وردة الزنج في عشرين سنة تقريباً. بينما تطلب القضاء على ردة القرامطة زهاء مائة سنة. بينما احتاج القضاء على الردة العبيدية ـ المسماة بالعلوية أو الفاطمية ـ مدة مائتين وسبعين سنة تقريباً. وقد يكون من الصعب اتهام امراء المسلمين من خلفاء بني العباس، أو إدانة ولاتهم، بالقصور والتقصير فقد برز من خلال عرض مسيرة الأحداث أن امراء الأقاليم وقادة الجند كانوا على الأغلب يسرعون لمجابهة اعمال الردة، منذ توافر المعلومات الكافية عنها، بل إنهم كانوا في كثير من الأحيان يستبقون أحداثها ويأخذون على الظن. ولكن القدرات المتوافرة لهم كانت أقل من تلك التي يستطيع المرتدون حشدها. بفضل ما يتوافر لهم من القدرة التنظيمية، وبفضل عملهم السري ـ في الظلام ـ وبفضل المبادأة التي يمتلكونها. ثم كانت حروب الاستنزاف المتتالية كافية لوضع الدولة العباسية في وضع العاجز عن حشد ما تتطلبه حروب الردة من القوى والوسائط في المكان والزمان المناسبين.

ولكن، وكما كان قادة المرتدين يستفيدون من تحركهم الفكري المقترن بالعمل العسكري. ويستثمرون نتائج حروب الردة السابقة والدروس المستخلصة منها. فكذلك كان أمراء المسلمين وقادتهم، حيث كان العمل المضاد يعتمد على تحرك فكري عسكري، قدر اعتماده على التجارب والدروس المستخلصة من حروب الردة ذاتها. وكان التفوق في هذا المجال لمصلحة أمراء المسلمين، فقد كان الخلفاء يمتلكون الشرعية، وكانت هذه الشرعية تستمد قوتها من تعاليم كتاب الله وسنة رسوله. بينما كان التحرك الفكري للقادة المرتدين يشكل انحرافاً، وكان هذا الانحراف يبدأ بسيطاً، ثم يتزايد ابتعاداً عن النهج الإسلامي، مما كان يثير الاضطراب في وسط المرتدين. وكان أمراء المسلمين وقادة جندهم يفسحون المجال الرحب لعودة المضللين أو المخدوعين للتوبة والانابة والعودة إلى الطاعة والجماعة. وقد برهن هذا الأسلوب

على فاعليته وفائدته لا سيما عند اقترانه بالعمل العسكري. وبذلك كان يتم تجريد قوى الردة من امكاناتها وقدراتها بصورة تدريجية. وكان ذلك يستغرق وقتاً غير قصير. ويظهر ذلك حدة الصراع وقوته وصعوبته. فحوار الارادات المتصارعة هنا ليس مجرد صراع مسلح يمكن حسمه على أرض المعركة بضربة واحدة، وإنما هو صراع عقائدي فكري لا يمكن التراجع فيه إلا بفناء إحدى القوتين، وإلا بالقضاء على فكر إحدى القوتين. ونظراً لتفوق الفكر الإسلامي الملتزم بالنهج، نهج كتاب الله وسنة رسوله؛ فإن له الفرصة الثابتة والأكيدة لاحراز النصر النهائي. ولكن إحراز هذا النصر لم يكن بالأمر البسيط أو السهل. إذ كان باستطاعة المرتدين تصعيد العنف حتى ذروته القصوى، وبصرف النظر عما ينجم عن ذلك من دمار مادي أو تخريب اقتصادي أو أعمال قتل وإبادة بينما كان على قوات الشرعية ـ جند امير المؤمنين ـ أن تمارس عملها في اطار يحد من حريتها العسكرية للمحافظة على الموارد الاقتصادية والبشرية التي تعود في النهاية لمصلحة المجتمع الإسلامي. كما أنها كانت ملزمة بتقنين العنف حتى لا يتجاوز حدوده فيلحق الأذى بالمسلمين الذين لا علاقة لهم بالردة، وحتى لا يستثير بالتالي القوى المحايدة فيدفعها لدعم قوى الردة. ولقد اضطرت قوات الشرعية في كثير من الأحيان إلى مجابهة العنف بعنف مضاد. ولكن وحتى في هذه الحالات، كانت حرية العمل العسكري لجند أمير المؤمنين مقيدة بضوابط صارمة. ولقد كان ذلك مصدر معاناة كبيرة لجند المسلمين وأمرائهم وقادتهم. إلا أن النتائج التي أمكن تحقيقها في كل مرة كانت كافية للتخفيف من حدة هذه المعاناة، ولاعطائها حجتها ومسوغها المقبول. ويفسر ذلك تفسيراً جزئياً اسباب استطالة أمد حروب الردة بصورة متزايدة، إذ لم تكن قضية حروب الردة هي قضية صراع مسلح يعتمد على موازنات القوى، وحجم الجيوش، وانما يعتمد على مجموعة من العوامل الأخرى ـ المادية والمعنوية ـ والتي تمارس دوراً كبيرا في مسيرة الصراع المسلح وتطوراته.

لقد كانت المعرفة العسكرية المشتركة عاملاً حاسماً أيضاً في استطالة أمد حروب الردة، وامتداد كل حرب عن سابقتها. فقد كانت القوى المتصارعة تستند إلى أرضية مشتركة من المعرفة العسكرية. وقد أظهر استعراض أحداث

المعارك والوقائع ذلك التشابه الكبير في أساليب القتال. وصحيح أن قوى الردة كانت تستفيد من المبادأة عند تفجيرها للصراع المسلح، إلا أنه كان من المحال عليها الاحتفاظ بالمبادأة بصورة مستمرة. وكانت قوى الردة تستثمر إلى حد كبير قدرتها الحركية العالية لتحقيق المباغتة، وذلك بالاكثار من الكمائن والاغارات، إلا أنه كان من العسير عليها وقاية نفسها بصورة دائمة من التعرض للمباغتة. وكانت قوى الردة قادرة على إعادة تنظيم قواتها بسرعة وحشد جندها وأنصارها بمرونة، ولكن الطرف المقابل لم يكن أقل قدرة على اجراء الحشد في الزمان والمكان المناسبين، واحراز التفوق على قوى الردة. وكذلك فإذا ما كان لقوى الردة أنصارها وشبكات عيونها - جواسيسها - ومفارز استطلاعها المنتشرة في كل مكان من مسرح العمليات - وحتى خارج مسرح العمليات، فقد كان لجند أمير المؤمنين أنصارهم، ولهم شبكات عيونهم، ولهم قوات استطلاعهم. وهكذا كانت قوى الطرفين متشابكة متداخلة - بعضها ببعض - مما كان يساعد أحياناً قوة أحد الطرفين المتصارعين بأكثر مما يساعد الطرف الآخر، بينما ينعكس الوضع في أحيان أخرى. وهكذا كانت تستمر لعبة الصراع القاتلة بين مد وجذر، بين نصر وهزيمة. فيما كان آلاف المقاتلين يسقطون صرعى على جبهتي الصراع، بانتظار الوصول إلى النصر الحاسم.

لقد أيقظ الإسلام الروح الوثابة في الإنسان، ورفعه عندما شرفه بواجب الجهاد في سبيل الله. وكانت حروب الفتح هي المدرسة العملية والتطبيقية للمذهب العسكري الإسلامي. وقد شاعت أسس هذا المذهب ومبادئه، واتسع نطاق حمل السلاح في القبيلة المسلحة، ولقد كانت هذه القبيلة من قبل الإسلام تعيش على الحرب. إلا أن نطاق هذه الحرب كان محدوداً وفي نطاق ضيق، فلما انتشر الإسلام، وانضمت إليه شعوب شتى وأمم مختلفة اتسع مجال عمل - القبيلة المسلحة - والتي بات باستطاعة كل فرد يمتلك كفاءة قيادية عالية أن يمارس دوره فيها. وهكذا توافرت القدرة القتالية وتوافرت الكفاءة القيادية، وتوافر الهدف، فكان باستطاعة قوى الردة الاستناد إلى قاعدة قتالية قوية من الجماهير التي تمتلك الخبرات القتالية العالية. ولقد برهنت مسيرة احداث حروب الردة وتطوراتها مدى ما كان

يتوافر للقيادات المختلفة من كفاءات قيادية عالية، وما كان يتوافر للقوات من خبرات قتالية رائعة، بحيث كان يتم تطبيق مبادىء الحرب بصورة مثيرة وعلى كافة الصعد والمستويات. وقد يكون من السهل بعد ذلك استخلاص الحقيقة الكامنة في تناوب الانتصارات والهزائم على قوى جبهتي الصراع، حيث تستند كافة القوى إلى أرضية مشتركة من المعرفة العسكرية. بالاضافة إلى معرفة كل طرف بنوايا الطرف الآخر وطرائقه وأساليبه، علاوة على المعرفة المشتركة لطبيعة مسرح العمليات - الجغرافية - وما يتوافر لهذا المسرح من ميزات أو مساوىء. كل ذلك بالاضافة إلى المعرفة العميقة للسكان - (أو الطبيعة الديموغرافية).

لقد كان من الطبيعي في ظروف حروب الردة. وفي إطار ما تضمنته من استنزاف كبير للقوى والإمكانات والموارد، أن يبحث كل طرف من الأطراف عما يرفد صراعه بالقدرة التي تساعده على الاستمرار حتى مرحلة الحسم. وكانت دار الخلافة تمتلك بحكم سلطتها الشرعية مثل هذه القدرة بأكثر مما كانت تمتلكها قوى الردة المنحرفة. وإذا كانت معظم قوى هذه الردة قد جاءت على الأغلب من الشرق - بلاد فارس -. فلقد كانت هناك قوى أكثر بعداً على اتجاه الشرق كانت تدين بمذهب السنة، وتلتزم بالطاعة والجماعة. وكانت هذه القوى ممثلة بنوع من الشعوبية - بحسب التعابير والمصطلحات الحديثة - إلاّ أنها كانت مسلمة قبل كل شيء، ومخلصة في اسلامها وصحيحة في اعتقادها - منها الخوارزمية، والتركمان، والأتراك السلاجقة والأكراد وسواها. جاءت لنصرة الإسلام، وحملت على عاتقها جهاد المنحرفين والرافضة. هذا على مسرح الشرق. أما على مسرح الغرب، فقد اضطلع العرب والأفارقة بأعباء مقاومة الرافضة والقضاء عليها، مع أنها كانت في بداية أمرها هي التي سارت وراء الرافضة وهي التي ساعدتها على الظهور. ويمثل هذا التحول نموذجاً رائعاً لدور العقيدة الإسلامية في التحولات المثيرة لمسيرة الرافضة، التي استطاعت ان تخدع بعض الناس لبعض الوقت، ولكنها لم تتمكن من خداع كل الناس طوال الوقت. ولا ريب ان تطرف المرتدين من الخرمية والزنج والقرامطة والعبيدية وسواهم، وابتعادهم أكثر فأكثر عن جادة الإسلام، كان من العوامل الحاسمة لا في

حدوث التحولات والانشقاقات داخل حركات الردة ذاتها، وإنما في حفز مراكز القوى الأخرى على الاضطلاع بدورها في اجراء التصحيح المطلوب. ولا ريب أيضاً بأن المقاومة الضارية للعرب المسلمين الذين تصدّوا طوال مراحل الصراع المسلح للحركات المرتدة، ودفعوا الثمن غالياً لمواقفهم، من دمائهم وأموالهم ـ مثل موقف بني هاشم في البصرة أثناء ثورة الزنج ـ كان أيضاً من العوامل الحاسمة في إجراء التحولات المضادة للمرتدين. إذ كان جمهور المسلمين في حاجة للأمثولات القيادية في وسط التيار الجارف للردة خلال مرحلة انطلاقتها. ويؤكد ذلك مرة أخرى أنه من الصعب، إن لم يكن من المحال، ترجمة حركات الردة على اساس انها حركات طبقية، أو أنها حركات اجتماعية، فلقد ضمت قوى الردة مجموعات من مختلف الشرائح الاجتماعية بحسب المصطلحات الحديثة، كما ضمت القوات المضادة ـ جند أمير المسلمين ـ مقاتلين من مختلف الشرائع الاجتماعية. ولم يتحرك الطرفان بدافع أقوى من الدافع العقائدي ـ الديني ـ ولو أنه من الصعب أيضاً تجاهل العامل المادي ودوره في الحرب، مثله كمثل أي حرب، غير أن هناك تبايناً كبيراً بين أن يكون العامل المادي هو الأساس في حروب الردة، وبين أن يكون عاملاً مساعداً استخدمته كل الأطراف المتصارعة حتى تتمكن من الاستمرار والتطور. ولقد اندمجت في حروب الردة كافة العوامل المكوّنة للحرب، غير أن العامل الديني ـ العقائدي ـ بقي هو المهيمن على مسيرة الأحداث وهو الموجّه لها طوال مراحل الصراع المسلح.

لعله من الضروري بعد ذلك، التعرض للجانب المادي ـ الاقتصادي ـ في حروب الردة عامة ـ بما في ذلك ثورة الزنج، وذلك على ضوء الشواهد المتوافرة في حركات الردة ذاتها. فقد كانت حركات الردة في حاجة للموارد المالية ـ الاقتصادية ـ حتى تتقوى بها، وحتى تؤمن لأفرادها من المغانم ما يدفعهم للسير في ركاب الثورة. وقد يكون ذلك أمراً طبيعياً إذ من المحال على أية حركة ثورية ـ أو لأية جماعة ـ ضمان تماسكها وترابطها ما لم يتم تأمينها مادياً. ولهذا انطلقت حركات الردة عامة من منطلق الحقد على الأغنياء ومصادرة أموالهم ونهب ممتلكاتهم، وتوزيعها على أفراد الرافضة وعلى سواهم لاستئلافهم. ثم تطور الأمر مع تطور الصراع فامتدت

يد النهب لأقاليم بكاملها. ولم يعد الهدف هو الحصول على الغنائم فحسب، وإنما أيضاً لحرمان الطرف الآخر ـ القوات الشرعية ـ من مواردها الاقتصادية، فاتسعت دائرة الحرق والتدمير، واقفرت الأقاليم من مواردها الطبيعية. ونزح السكان عنها. ولم تعد الموارد كافية لإمداد قوات الردة بمطالبها فعاد جند أمير المسلمين واستخدموا النهج ذاته في التضييق على المرتدين والإمساك بخناقهم. وقد أظهرت مسيرة أحداث حروب الردة وتطوراتها دور الحصار الاقتصادي في التأثير على قوى المرتدين، وتفتيتهم من الداخل، وذلك على الرغم من الجهود التي كان قادة المرتدين قد بذلوها مسبقاً لإقامة مستودعات طوارىء ضخمة، ولحفظ مخزون كبير من المواد التموينية والغذائية. وهكذا، فقد كان استخدام العامل الاقتصادي ـ المالي ـ في طريقته وفي هدفه وفي نتيجته هو من أجل دعم القدرة الذاتية ولحرمان الخصم من هذه القدرة. **وبقي الهدف الأساسي هو الهدف الديني:** وهو إن لم يكن كذلك، فلماذا تركّزت الهجمات على المساجد عندما قام الزنج بإحراق البصرة؟ ولماذا عمل القرامطة على أخذ الحجر الأسعد من مكّة المكرّمة؟ ولماذا استباحت كل حركات الردة دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم؟ ولماذا أباحت كل حركات الردة ـ الفروج ـ وانتهكت المحرمات؟ ولماذا عملت جميعها على انتهاك العبادات أو عملت على تحويرها واستبدالها؟ والأهم من ذلك كله، فلو كانت حركات الردة هي من أجل المغانم المادية، فقد كان لها في الجهاد على الثغور مجال لاكتساب المغانم. فلماذا اختارت هذه الحركات الطريق الأكثر وعورة وانصرفت عن الجهاد في سبيل الله لتجرد سيوفها ضد المسلمين، وضد المسلمين فقط؟ لقد كان للعامل المادي ـ الاقتصادي ـ دوره في حروب الردة، فالقوة مرتبطة دائماً بالثروة ـ فكان من طبيعة الأمور أن تبحث عن موارد القوة، من خلال الحصول على الثروة. ولم يعرف قادة الردة أن كل عامل من العوامل دوره السلبي والإيجابي، وأنه ذو حدّين، وكان لزاماً استخدام هذا العامل ضدهم.. من جانب قادة جند أمير المؤمنين ـ. ولقد أدرك قادة حركات الردة خطأ نهجهم ـ ولكن بعد فوات الأوان ـ حيث كان لزاماً عليهم دفع ثمن انحرافهم.

هكذا حملت حركات الردة في جوفها، في فكرها وفي ممارساتها، عوامل

مصرعها وفنائها. ومن عجب أن قادة المرتدين لم يفيدوا شيئاً من فشل تجارب من سبقهم، وظنّوا أن باستطاعتهم تجنّب أخطاء من سبقهم، والمضي إلى ما لم يبلغه أسلافهم، وتجاهلوا عوامل الفشل الثابتة في حركات الردة جميعها، بداية من حروب الردة أيام الخليفة أبي بكر رضي الله عنه، ومروراً بتجارب الخروج على الطاعة والجماعة في العصر الأموي والصدر العباسي الأول. ونهاية بتجارب من سبقهم في عصرهم. ولقد نجحت حركة من حركات الردة في إقامة دولة - العبيدية المسماة بالعلوية أو الفاطمية - غير ان هذه الحركة لم تلبث ان فقدت قدرتها، وحوصرت في مصر ذاتها، واضطرت في مرات كثيرة الى السير في ركاب أهل السنة، بحيث لم يبق من التشيع المزعوم إلاّ بعض رموزه، وتحوّلت الى حركة سياسية - بحسب المصطلحات الحديثة - إذ لم يعد يهمها ان تنتصر بالعرب المسلمين في بلاد الشام وإفريقية ضد دعاة التشيع، ليس ذلك فحسب، بل إن ما وقع من شقاق وخلاف بين القرامطة والعبيديين في مصر، قد أظهر الطبيعة الحقيقة لهذه الحركات حتى عندما أصبح لها دولة. وسقطت كافة الأقنعة الخداعية التي استندت إليها الحركات هذه في مرحلة نموها وظهورها. وإذا استمرت هذه الحركات بعد ذلك في المحافظة على وجودها، فإنها لم تستمر إلا بسبب عدم وجود من يجهز عليها، حتى إذا ما جاء موعدها، زالت ولم يبق منها أكثر من ظلال قاتمة تذكر بتاريخها الأسود، بما اقترفته بحق الإسلام والمسلمين. هذا هو الجانب السلبي، إلاّ ان لحركات الردة أيضاً جانبها الإيجابي بالنسبة للإسلام والمسلمين أيضاً، فقد أسهمت هذه الحركات بالتأكيد في تثبيت دعائم الإسلام في وسط الأمم والشعوب التي أقبلت على اعتناق الإسلام. إذ تبيّن خطر تلك الحركات المنحرفة وتكشفت ضلالاتها، وعرفت مكائدها وخباثتها. فكان الصراع بين الإسلام وأعداء الإسلام: بين الخير والشر، بين الحق والباطل، هو المجال الرحب لتثبيت ما ينفع الناس ويبقى في الأرض، وبين ما هو غثاء لا ينفع الناس. فتذروه الرياح، وتذهب به الأعاصير.

لقد توافرت لقادة حركات الردة - الرافضة - يقيناً كفاءة قيادية عالية، ولولا ذلك ما استطاعوا المضي بحركاتهم وتحقيق نجاحات كبيرة. فكيف غامر

مثل هؤلاء القادة بركوب المركب الخشن، ومفارقة الطاعة والجماعة، رغم فشل التجارب المتتالية لحركات الردة؟ يعرف المسلمون ان ظهور مثل هؤلاء المرتدين هو ابتلاء لأصحاب الردة خاصة، وللمسلمين عامة. ولقد وضح من خلال تجارب حروب الردة انها كانت خيراً على المسلمين، رغم ما تعرّضوا له من المعاناة، ورغم ما نزل بهم من النوائب. وقد اختلفت النوازع التي دفعت قادة المرتدين للقيام بحركاتهم والإضطلاع بثوراتهم، فمنهم الطائع ومنهم الطامع. ومنهم المخدوع. وجميعهم يدفعهم الحقد والكراهية للإسلام والمسلمين. ولقد مارس هذا الحقد وتلك الكراهية دورهما حتى داخل مجتمع الردة. فكان في ذلك تآكل هذا المجتمع وتفتته وتمزّقه.

وتبقى حروب الردة منهلاً ثراً ومورداً خصباً لكثير من الدروس الهامة، والتي احتفظت بقيمتها وأهميتها رغم تقادم الزمن. ويظهر استعراض مسيرة الأحداث لتلك الحروب مدى ما كان عليه المجتمع الإسلامي من التطور الفكري خلال تلك الفترة الموغلة في القدم. سواء في مجال السياسة الاستراتيجية، أو في مجال فن الحرب أو في مجال قيادة الأعمال القتالية، أو في مجال العمل التنظيمي. على جبهتي الصراع. وإن مطالعة تلك الأحداث يستطيع أن يتصور بكثير من الذهول وكأن ما حدث قد وقع بالأمس القريب. وذلك بصرف النظر عن الأسلحة ووسائط الصراع. لقد وصل الفكر السياسي والفكر العسكري في تلك الحقبة إلى مرحلة متقدمة جداً لا تنافسها إلاّ أحدث التجارب الثورية. وقد يصعب العثور في أي تجربة تاريخية الحصول على نماذج متكاملة للحروب الثورية المتلاحمة بالحروب التقليدية ـ النظامية ـ كتلك التي حفظتها حروب الردة. ويعتبر ذلك عطاء خيراً لفن الحرب الإسلامي الذي قدم من التجارب ومن الدروس ما لم يتوافر لأية تجربة تاريخية أخرى. وقد يشعر إنسان الأزمنة الحديثة باعجاب كبير بتلك القوى والقيادات التي اضطلعت بأعباء حركات الردة. وقد يكرهها ويمقت أصحابها. وكذلك الأمر عندما يطالع دور القيادات والقوى المضادة للردة، إذ قد يتعاطف معها ويحبها، أو يقف منها موقفاً مغايراً، ولكن لا يسعه في الحالات كلها إلا أن يشعر بقوة الإسلام وبفضله على هذه الأمة، حيث دفعها لآفاق التطور الفكري الواسعة، واستنفر كل قدراتها الكامنة،

فانطلقت للابداع في كل مجالات العمل السياسي والعسكري والتنظيمي والاجتماعي. وقد يكون ذلك وحده كافياً لارتياد التجربة التاريخية، والتعلم منها، مما يساعد على فهم كثير من احداث الأزمنة الحديثة الحافلة بكل أنواع الثورات والاضطرابات والهيجانات المنتشرة في كل صقع من أصقاع العالم.

إن تجربة - حروب الردة - هي تجربة لها خصوصيتها في إطار العالم الإسلامي، وهي تجربة فردة في إطار العالم العربي الإسلامي، إلاّ أنها رغم خصوصيتها، ورغم فرديتها، فإن لها أبعادها العالمية حيث تلتقي بظلالها المتقدمة مع التجارب المعاصرة - تجارب الحروب الثورية. فقد بدأت معظم حركات الردة انطلاقتها بأساليب الحرب الثورية ثم انتقلت عبر مسيرة تطورها إلى المزج بين أساليب الحرب الثورية وطرائق الحرب النظامية. فهل جاءت الحروب الثورية المعاصرة بجديد عمّا جاءت به حروب الردة من قبل اكثر من ألف عام؟. هذا في مجال فن الحرب وحده. أما في مجال الصراع الفكري. فتلك هي محفوظات علماء الكلام، والفقهاء وجميعها تتضمن من الخبرات والتجارب ما يثير حقاً، وما هو جدير بالاستقراء والتعلم. وليس هناك ما هو اكثر فائدة للتعلم من استلهام معطيات التجربة التاريخية الذاتية.

٢ ـ قصة المعركة في العصر العباسي .

أظهر العرض السابق أن العصر العباسي قد عرف ثلاثة أنواع رئيسة من المعارك: **أولاها** تلك التي قادها امراء بني العباس ـ الخلفاء ـ في الصدر العباسي الأول، وتمثلها أصدق تمثيل معارك الرشيد ومعركة المعتصم (عمورية). **ومعارك قادها** امراء الأقاليم على الثغور (آل حمدان وآل سبكتكين). **ومعارك داخلية** ضد ما يمكن تسميته بالحركات الثورية ـ حسب التسميات الحديثة ـ. وهذه المعارك، وبصرف النظر عن حجم القوات فيها، تشترك بمجموعة من الظواهر التي تجعل بالمستطاع جمع هذه الظواهر في قصة معركة واحدة، مع تجاوز الفوارق المميّزة لبعضها، ولكن دون اهمالها، حيث ستظهر هذه الفوارق عند التعرّض للعناصر التي تشملها المعركة ـ بداية من تنظيم القوات، ونهاية باستثمار النصر ـ.

لقد كانت الحرب تبدأ بضرب بوق النفير في قصر الخليفة أمير المؤمنين، وسرعان ما تتردد أصداء النفير في كافة الأقاليم. غير أن حشد القوات كان يقتصر ـ على الأغلب ـ على جيش الخليفة المتمركز في بغداد أو على مقربة منها. والذي ينتقل فور إعلان النفير الى المنطقة المجهّزة القريبة من العاصمة. وتنضم الى الجيش جموع المتطوعة. حتى إذا ما اكتمل حشد القوى والوسائط، بإشراف الخليفة ذاته أو من ينتدبه لهذا العمل، يجري تنظيم هذا الجيش بما كان يعرف باسم (الخميس) وهو تقسيم الجيش الى مقدمة ومجنبة يمنى، ومجنبة يسرى ومؤخرة، والقلب وهو الكتلة الضاربة الرئيسة. غير أنه يجب أخذ هذه التسمية ببعض الحذر. فالخميس لم يكن جيشاً واحداً. لاسيما عندما كان يبلغ من الحجم ما يتجاوز المائة ألف مقاتل. بل كان عبارة عن مجموعة جيوش. كما ان المقدمة والمؤخرة وحتى المجنبتين اليمنى واليسرى لم تكن كتلة واحدة، بل كثيراً ما كان يتم دفع أكثر من مقدمة وأكثر من طليعة على محور التقدّم الأساسي. وكثيراً ما كان يتم تنظيم أكثر من مؤخرة (ساقة) لاسيما عند التحرك في مناطق صعبة أو عند الانسحاب من مسرح العمليات. ولما كان حجم الخميس كبيراً، ويصعب تحركه بكتلة

واحدة ـ بسبب المتطلبات الإدارية والتموينية ـ فقد كان يتم دفع الجيش نحو الثغور بكتل متتالية. وكان على كل جيش تنظيم نفسه على شكل خميس مصغر (جيش مستقل). الى ان يتم الحشد النهائي على مقربة من ثغر من الثغور (أو عاصمة من العواصم كما أعطاها تسميتها الرشيد). ومن هناك، تحدد المهمة لكل خميس وينطلق كل خميس نحو هدفه في الموعد الذي حدّده أمير المؤمنين ـ إذا كان هو الذي يقود الخميس ـ أو من يتولى القيادة باسمه ـ. ويتبعه خميس آخر في موعد لاحق.

وكثيراً ما كان كل خميس يتحرك على محور عمليات مستقل ـ إلى أن تلتقي مجموعة الجيوش عند الهدف، وفي الموعد الذي حدّده القائد الأعلى ـ الخليفة ـ. هنا لا بد من القول بأن حجم الخميس في منطقة العمليات لم يعد على نحو ما كان عليه عندما غادر منطقة الحشد الدولي القريبة من بغداد. فقد انضمت جيوش المدن القريبة الى الثغور، ورفدت الخميس بمزيد من القوة. كما انضمت إليه جموع جديدة من المتطوعة ـ المجاهدين في سبيل الله ـ. والذين لا راتب لهم إلاّ ما يصيبهم من الأسهم التي ينالونها في المغانم. وكثيراً ما أغفل دور هؤلاء في المعارك حيث كان يتم التركيز على عمل الجيوش، غير أن دور هؤلاء كان بالتأكيد دوراً حاسماً في امداد الخميس بالقدرة القتالية ـ مادياً ومعنوياً ـ.

لقد كانت عناصر الاستطلاع لكل قسم من أقسام الخميس ـ لكل جيش من الجيوش ـ تعمل على جمع المعلومات المتعلقة بطبيعة مسرح العمليات، والقوى المعادية، وقادة العدو. وتتناقل أقسام الخميس المعلومات ـ عن طريق المراسلين ـ. وكان باستطاعة كل قسم من هذه الأقسام خوض معركة مستقلة إذا ما بوغت بظهور العدو بصورة غير متوقعة. فإذا أمكن حسم الصراع فاز هذا القسم من الجيش بشرف النصر. أما إذا عجز عن حسم الصراع، فإنه يحاول تثبيت القوات التي اصطدم بها قدر المستطاع مما يساعد بقية أقسام الخميس على التجمع لحسم الصراع ـ إذا كانت كتلة العدو هذه هي الكتلة الرئيسة التي تشكل الهدف، وإما أن تتابع بقية أقسام الجيش تحركها نحو هدفها مكتفية بتثبيت هذه القوة وتجميدها إلى أن تنتهي المعركة مع الكتلة الرئيسة المعادية، وهذا مما يفسح المجال للقضاء على القوة التي سبق تثبيتها. وكثيراً ما

كانت هذه الكتلة تنهار عندما تصلها أخبار انهيار الكتلة الرئيسة من قواتها. إن هذا النظام الاستقلالي لتحرك الأرتال، قد أفسح المجال الرحب أمام عمل المفارز الصغرى للعمل أيضاً باستقلالية كاملة وفي إطار بديع من التنظيم المذهل. فقد كان قائد كل قسم من أقسام الخميس يحرص على نشر مفارز كثيرة من الفرسان الخفيفة التي ينحصر واجبها بارتياد الأقليم واستطلاعه وجمع المعلومات والحصول على المواد التموينية من الأقليم ذاته. والقيام بالأعمال التخريبية التي تنشر الرعب في وسط جيوش العدو وفي وسط السكان على السواء. ويجد العدو نفسه أمام حرب تشتيتية واسعة، وفي وسط مواقف غامضة يصعب عليه التعامل معها.

لقد كان يحدث كثيراً أن يصطدم قسم من أقسام الخميس بمقاومة غير متوقعة، أو بقلعة من القلاع المحصّنة التي تهيمن على محور العمليات، فتعترض سبيل تقدم قوات هذا القسم. ويظهر ان قوات المسلمين كانت قد اعتادت على مجابهة مثل هذا النوع من المقاومات. ولهذا كانت تتعامل معها بصورة طبيعية، فإما أن تهاجمها من الحركة، وتنقض عليها بصورة مباغتة فتجتاحها. وإما أن تلتف حولها وتتابع تحركها على الاتجاه المحدد لها، وإما أن تضطر لترك قسم من قواتها لحصار تلك القوة ـ أو القلعة ـ لاسيما عند ما تشكل هذه القوة تهديداً لمؤخرة القوات، وتتابع طريقها بالقسم الأكبر من قواتها للوصول الى هدفها.

وكان كثيراً ما يحدث أن يصطدم أحد أقسام الخميس بعائق طبيعي غير متوقع مثل الأنهار ومضائق الجبال والغابات الكثيفة، وهنا يظهر أيضاً أن جيوش المسلمين قد اكتسبت خبرة واسعة في مجال التعامل مع مثل هذه الحواجز والعوائق فكانت تعمل على تجاوز الحواجز المعيقة بما هو متوافر لها من التجهيزات وبما يمكن لها تجهيزه أو الإفادة منه في مسرح العمليات. وصحيح ان (الفعلة) أو المفارز الاختصاصية لتنظيم العبور وتمهيد الطرق في الجبال، هي التي كانت تنظم العمل وتضطلع بأعبائه. غير أن بقية القوات كانت تقوم لها أكبر قدر من الدعم والمساعدة.

لقد حدث ذلك كلّه، ولازالت الكتلة الرئيسة ـ القلب ـ تسير نحو هدفها بصورة مأمونة نسبياً وقد مهّدت لتقدمها الأقسام التي سبقتها حتى الوصول الى الهدف والذي

قد يكون إما الجيش الرئيسي للعدو، أو مدينة كبيرة قد تحصن بها هذا العدو ودفع أمامها بعض قواته لمشاغلة المسلمين وإكمال الاستعدادات الدفاعية، أو حتى خوض المعركة أمام المدينة. وكثيراً ما كانت جموع الخميس تزيل هذه المقاومات بسرعة، مستفيدة من ثقل هجمتها المادية وزخمها ـ قوة دفعها ـ المعنوية، فتعمل على محاصرة العدو وتطويقه. وهنا يأتي قائد الخميس ليقسم المحيط الدائروي الى قطاعات، وتخصص لكل قسم من أقسام الخميس القطاع الذي يتناسب مع حجم قواته، ثم يجري استطلاع الهدف استطلاعاً دقيقاً، ويقوم قائد الخميس بنفسه بالاستطلاع ـ وهو ما يمكن بتسميته استطلاع القائد ـ بهدف كشف نقاط ضعف العدو، والتأكد من المعلومات المتوافرة. ويعمل قائد كل قطاع على إجراء العملية ذاتها في حدود قطاعه، فيرسل مفارز الاستطلاع لجمع المعلومات ويكرر هو استطلاعه الشخصي. فيما تكون القوات تجري استعداداتها للقتال والاشتباك مع العدو وإشغاله والبحث عن الوسائل التي تزيد من ثقل وطأة الحصار، وأهمها حرمانه من المواد التموينية والمياه. وتحرص القوات التي وقعت في دائرة الحصار على طلب الدعم من بقية قواتها الصديقة. وكان المسلمون يعرفون ذلك ويتوقعونه، ويقيمون استعداداتهم على اساسه ـ حتى لا يباغتهم العدو بهجوم من الخلف. فكانوا يدفعون مفارز الاستطلاع حتى الأفق البعيد ويحرمون القوات التي هي في داخل دائرة الحصار من كل اتصال مع الخارج. وبالرغم من ذلك، فكان يحدث أحياناً ان تتقدم قوات خارجية لفك دائرة الحصار وكان المسلمون يعرفون كيف يجابهون مثل هذا الموقف بعيداً عن مسرح العمليات.

كانت الحامية تجد ذاتها مرغمة على الأخذ بواحد من خيارين: فإما تنظيم هجوم مباغت للخروج من دائرة الحصار، وإما البقاء وراء تحصينات القلعة قدر المستطاع. وأحياناً يتم دمج الخيارين في خيار واحد، بحيث تقوم القوات بهجوم مباغت لتشتيت قوات المسلمين، فإذا امكن تحقيق نجاح أمكن رفع الحصار، أما إذا فشل الهجوم فتعود القوات الى قلعتها لتحتمي بها، وتعاود دفاعها. وقد تكرر المحاولة أكثر من مرة إذا ما توافرت لها قوات كافية، أو إذا وصل بها الموقف إلى مرحلة يائسة. وكان المسلمون بدورهم قد عرفوا هذه الأساليب كلها، وأتقنوا التعامل معها بكفاءة مثيرة للدهشة.

فإذا ما قام العدو بهجوم مباغت وجد أن قوات المسلمين قد استعدت له، فتقع معركة ضارية، ويزج قائد الخميس كتلة قواته الاحتياطية، وكثيراً ما كان يتم سبق القوات المعادية الى مداخل القلعة وأبوابها وتجري محاصرة القوات وإبادتها مما يسهل من عملية الاستيلاء على القلعة. أما إذا التزم العدو بالدفاع ولم يغادر تحصيناته، فالحل جاهز، إذ كانت استعدادات المسلمين كافية، فالمنجنيقات والأبراج والسلالم والاوهاق ـ الحبال ذات الخطاف ـ وسواها هي من بعض عدة قوات المسلمين للتعامل مع الموقف. ولكن لا بد قبل استخدامها من استنزاف قوة العدو وإشغاله طويلاً ـ بالسهام والمجانيق ـ إلى أن تحين اللحظة المناسبة إما لاقتحام القلعة بهجوم مباغت، وإما للهجوم عليها واقتحامها عنوة. وما من حاجة هنا لذكر الأعمال المختلفة التمهيدية التي كانت تسبق عملية الاقتحام ـ والاستعدادات الهندسية، من أعمال ردم للخنادق، ونقب لجدران الحصون والقلاع ولغمها، وغيرها ممّا أبرزه العرض السابق للأعمال القتالية، سواء على الجبهة الداخلية أو الخارجية.

لم يكن هذا هو الشكل التقليدي لقتال الخميس، بل كان هناك شكل أكثر أهمية وأكثر وضوحاً وهو**المعركة التصادمية**، حيث كان المسلمون يسيرون لقتال عدوّهم الذي يكون بدوره قد جهّز قواته واستعد للمعركة ودفع أمامه عناصر الأمن من مقدمات ومفارز استطلاع وعيون ـ جواسيس ـ وعادة ما كانت تقع هذه المعركة عندما تبدأ مقدمات الطرفين المتصارعين بالاشتباك. فتعمل إحدى المقدمتين على تدمير الأخرى. وغالباً ما كان تنتهي معركة المقدمات ـ أو الطلائع بانتصار المسلمين الذين يتابعون تقدمهم نحو الكتلة الرئيسة لقوات العدو، والتي تكون قد تلقت انذاراً بما تعرّضت له مقدماتها من نكبة أو هزيمة، وانتظمت للمعركة. ويحاول قائد الخميس إحباط إرادة العدو، بالاختيار المناسب لأرض المعركة، وكان للمسلمين طرائق مختلفة، أهمها دفع قوات كثيرة للاشتباك مع العدو، ثم التظاهر بالانسحاب نحو منطقة القتل التي يكون قائد الخميس قد اختارها بدقة ونظم قواته عندها. وغالباً ما يكون هذا التنظيم على شكل كمينين على جانبين أو كمين بجانب واحد، بحسب ما تسمح به طبيعة الأرض. وعندما تتجاوز قوات العدو في تقدّمها قوات الكمين، تخرج هذه

القوات على مؤخرة العدو وتحيط بها، وتتحول المعركة الى ما يشبه المذبحة هدفها أسر أو قتل أكبر عدد من قوات العدو. ونظراً للصراع المستمر بين المسلمين وأعدائهم، فقد عرفت القوات المتحاربة على جبهتي الصراع هذا الشكل من أشكال القتال. وغريب الأمر هو أنه رغم هذه المعرفة فقد كانت قوات العدو كثيراً ما تنقاد الى منطقة القتل، تحت تأثير إغراء حسم المعركة، فتتعرض للهزيمة المدمرة. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على حقيقتين: **اولاهما** كفاءة القادة في تجديد الأسلوب على مستوى العمليات وتطوير أساليب الخداع والإخفاء والتمويه مما يجعل العدو منقاداً نحو منطقة القتل وهو مغمض العينين. **وثانيتهما** هو أن قوات المسلمين كانت تلقي بثقلها للتضييق على العدو، وحرمانه من الخيارات المتنوعة، بحيث يجد العدو نفسه أمام موقف صعب لا مخرج منه إلاّ بخوض معركة يائسة مهما كانت نتائجها.

لقد كان التنظيم المعهود للمعركة التصادمية هو أن تتقدم قوات الفرسان الخفيفة بصفوف ـ أنساق ـ متتالية ومعها الأعلام والرايات ثم تتبعها على مسافة كافية قوات المشاة بصفوف متتالية. وتأتي بعد ذلك منطقة الشؤون الادارية والأثقال. فيما تبقى قوات كافية من الفرسان لحماية الاجناب والمؤخرة وتبدأ المعركة بالمبارزة التي قد تستمر أياماً ـ أو قد لا تستمر لأكثر من ساعات قليلة ـ وتأخذ هذه المبارزات شكل اشتباكات فردية تتحول احياناً بسرعة الى نوع من قتال الصدمة حيث تنطلق كتلة الفرسان بثقلها لاختراق قلب العدو او إحدى مجنبتيه، للوصول الى مؤخرته، والالتفاف من حولها لضرب المجنبات، فيما تتقدم كتلة المشاة لسحق قوات العدو التي مزقتها هجمات الفرسان. وغالباً ما كانت تنتهي المعركة عندما تتم الاحاطة بالعدو وتطويقه. ولكن كثيراً ما كان يحدث ان يحاول العدو استنزاف قوات جيش المسلمين بدفع رماته ـ المشاة رماة السهام ـ الى الانساق الاولى لامتصاص قوة اندفاع فرسان المسلمين وفصل الفرسان عن مشاتهم، وانزال اكبر قدر من الخسائر بقواتهم. وكان قادة الخميس يجابهون مثل هذا الموقف بما هو متوقع، حيث يعملون بدورهم على سحب قوات الفرسان الى الاجناب والمؤخرة ودفع النبالة ـ رماة السهام الى الأنساق الاولى، وتأخذ المعركة طابع الاستنزاف. فيما يحاول قادة الخميس الكشف عن نقاط

ضعف العدو والعثور على ثغرة في تنظيمه القتالي. وعندها تندفع كتلة الفرسان عبر نقاط الضعف او الثغرات لاختراقها وتمزيق التنظيم القتالي للعدو. وعندها تتصاعد حدة القتال حيث يظهر كل طرف تصميمه على احراز النصر. وينتصر الطرف الأكثر عناداً أو الأكثر تصميماً. وغالباً ما يكون النصر في مصلحة المسلمين. أما إذا حدث ان امتنع النصر، فسرعان ما يعمل قائد الخميس على اعادة تنظيم قواته تنظيماً جديداً ويعيد زجها في المعركة، وقد تتكرر مثل هذه العملية لاكثر من مرة، إلى أن يتم احراز النصر وحسم المعركة.

لم يكن أمراً غريباً ولا مثيراً، وقد عرف المجاهدون في سبيل الله ـ قادتهم وجندهم. أهمية اقتران عاملي السرعة والكتلة، عبر تجاربهم المستمرة، بأن يعملوا على تحقيق هذا الاقتران في تنظيمهم القتالي للمعركة، مهما كان شكل هذا التنظيم. وكان تنظيم كتل الفرسان يضمن في الحالات جميعها تحقيق الصدمة القوية بمحصلة السرعة والكتلة. غير ان غياب الفرصة لتحقيق قتال الصدمة لم يكن عائقاً أمام ابتكار اساليب غاية في الإبداع للوصول الى الهدف. فعندما لم تكن طبيعة الأرض تسمح بقتال ـ الكر والفر ـ وعندما كانت الممرات الجبلية والمضائق تعترض سبيل التقدم، كان يتم الاستعاضة عن الكتل الكبيرة بقوات من الفرسان الخفيفة للتسلل الى ما وراء العوائق الطبيعية ومباغتة العدو بضربة حاسمة تفقده توازنه، وتقذف به الى خارج ميزان القوى.

ولم يكن أمراً غريباً ولا مثيراً، وقد أتقن المجاهدون في سبيل الله أساليب حرب الحركة، بحكم ممارستهم المستمرة لها، أن تكون معركة الكتلة الرئيسة للقوات، أو المعركة الحاسمة إذا ما جاز التعبير والوصف، هي المحصلة النهائية لمجموعة الاشتباكات التي سبقتها والتي رافقتها، فقد كانت أرتال المجاهدين ـ جيوشهم النظامية والمتطوعة ينحدر نحو هدفها كالسيل الجارف، فتتفرق في السهول بحثاً عن المعركة، ويخوض كل قسم من أقسام الخميس معاركه الجزئية على نحو ما سبق عرضه، حتى إذا ما جاء دور معركة الكتلة الرئيسة تجمعت كل الأقسام حول الهدف ـ كما تتجمع المياه حول السد الذي يعيق تقدمها. وتستثمر الكتلة والسرعة لازالة الحاجز، ولكن وحتى

أثناء ذلك تتابع المفارز الصغرى عملها ـ سواء في نطاق عمل قوات الأمن، او في نطاق عمل القوات المكلفة بالتأمين الاداري للقوات، أو حتى بتنظيم مفارز خاصة لواجبات معينة مثل السيطرة على نقطة حاكمة، أو استطلاع محور للانسحاب أو الالتفاف من حول القوات، وهذا ما يشبه عمل المياه التي تصطدم بسد من السدود، حيث تحاول المياه حفر ممرات خاصة بها، او التسلل عبر ثقوب تم اهمالها، وتعمل المياه عملها لتوسيع الثقوب والثغرات الى ان يتداعى السد وينهار وتجتاحه الكتلة الرئيسة من مياه السيل.

ويبقى قائد الخميس دائماً مع الكتلة الرئيسة لقواته، أو مع القوة التي تقوم بالواجب الاكثر أهمية والأكثر خطورة، فهو على مقربة من المقدمة أثناء التقرب من جيش العدو، وهو مع الكتلة الرئيسة اثناء المعركة الحاسمة، وهو على مرتفع مشرف على ميدان القتال عندما يحتدم القتال ومعه قوة كافية من الفرسان للتدخل في الوقت المناسب إما لسد ثغرة ظهرت في تنظيم قوات المسلمين او لدعم قوة عجزت عن بلوغ هدفها، أو لحسم موقف تأخر موعد الحسم فيه، وهو أيضاً مع المؤخرة أثناء الانسحاب، وعلى طريق العودة من المعركة. حتى يضمن سلامة قواته، وحتى يجابه الظروف المستجدة أو الطارئة. وصحيح انه يعتمد دائماً على القادة الاكفاء لقيادة أقسام الخميس، غير أنه هو صاحب القرار الأول والأخير في ادارة الحرب، وهو الذي يشرف على تنسيق التعاون بين الأقسام المختلفة للخميس، وهو الذي يتصرف بالقوة الاحتياطية الكافية لزجها في الوقت المناسب وفقاً لما تتطلبه ظروف القتال وردود فعل العدو.

لم تكن معركة الخميس في الحالات كلها بمثل هذه الصورة البسيطة ـ أو المبسطة ـ فالمعركة هي التعبير عن حوار الارادات المتصارعة، ويستخدم العنف حتى أقصاه في هذا الحوار. ولولا توافر ارادة الحوار لانتفت المعركة ولما وقعت أو حدثت. ولهذا يحاول كل قائد استنفار مواهب العقل والابداع جميعها لاعطاء حواره ما يكفي من القدرة لاقناع خصمه بالاكراه المادي او المعنوي للاستسلام لخصمه. وهنا يظهر تفوق قادة خميس المسلمين في تطوير مبادىء الحرب من اجل الوصول بالحوار الى نهايته السعيدة، وتحقيق النصر الحاسم، وإذا كان الحرص على المبادأة هو من أول ما يبتغيه

قادة الخميس لوضع خصومهم أمام الخيارات الصعبة والمآزق الحرجة، فقد كان مبدأ المباغتة يحتل مرتبة عليا في حالات أخرى. وكثيراً ما مر خلال عرض الأعمال القتالية اصطلاح او تعبير: «وقاد مجموعة من الفرسان وسار بسرعة حتى يسبق خبره». ويتضمن هذا التعبير مجموعة من مبادىء الحرب **أولها**: الحرص على تحقيق المباغتة عن طريق التحرك السريع والإفادة من الظروف الجوية الصعبة او عبور المناطق المحمية والظهور في مناطق لا يتوقع العدو ظهور قوات فيها فتحدث المباغتة، وتنهار المقاومة. **وثانيها**: استخدام القدرة الحركية العالية في الأغراض الهجومية. وبحيث تكون هذه السرعة البديل عن الكتلة أو قوة الصدمة. **وثالثها**: الحرص على أمن القوات، وإحاطة التحرك بنطاق محكم من السرية والكتمان بحيث تصل القوات إلى هدفها، وتحقق مباغتتها قبل أن تتمكن قوات العدو من جمع المعلومات عن هذا التحرك، وانذار قيادتها به. وفي حالات أخرى، يكون لمبدأ (التأمين الاداري للقوات) الأفضلية الأولى على كل ما عداه من مبادىء الحرب، إذ قد يتمكن جيش العدو من تطويق جيش المسلمين، والإمساك بمناطق العبور، والسيطرة على محاور العمليات. وهنا كان قادة الخميس يعالجون الموقف بإعطاء التأمين الإداري الأفضلية التي يستحقها، فيجمعون المواد التموينية من الأقاليم. ويلجؤون الى (استراتيجية الأرض المحروقة) لحرمان العدو من موارد تموينه، وهم يعملون في الحالات كلها ـ أو في معظمها ـ على أرض العدو ذاته ـ ولهذا فإن الضغط والإكراه المادي، مثل إخلاء الارياف من سكانها وإحراق المدن. وقتل مفارز العدو المنعزلة، والإكثار من الاغارات والكمائن، يحول الخميس الى عبء ثقيل يصعب على العدو احتماله. فيعمل على افساح المجال أمام الخميس للعودة الى بلاده، وبل وحتى مساعدته أحياناً بوسائط النقل والحيوانات الضرورية لنقل الغنائم والتموين والمرضى، لإبعاده عن منطقة عملياته.

يبقى البحث عن الحسم هو الهدف الأول للخميس، بداية من القائد الأعلى ـ الخليفة او من يكلفه بذلك ـ وحتى آخر جندي. وكان البحث عن المعركة، والاستعداد الدائم للقتال، والفضائل الحربية للخميس هي بعض عدة هذا الحسم، أما على مستوى الأعمال القتالية وادارة الحرب فكانت أعمال التطويق والالتفاف ومناورات

التسلل العميق الى ما وراء مؤخرات العدو والمطاردة الحاسمة هي الوسائل لتنفيذ الحسم.
ولقد برز من خلال عرض الأعمال القتالية أن الذين كانوا يقتلون من جند العدو خلال معركة المطاردة هم أكبر بكثير ممن كانوا يقتلون على أرض المعركة. وقد عرف أعداء المسلمين هذه الحقيقة، فكان ذلك حافزاً لهم لخوض الصراع المسلح بعناد كبير ومقاومة بطولية مذهلة، وهذا ما عبرت عنه المصادر التاريخية العربية بتعبير: « حتى فرغ الصبر، وحتى ظن المسلمون أنه الفناء، إلى أن أنزل الله نصره على المسلمين ». وفي حالات أخرى، كان اقتناع أعداء المسلمين بحتمية انتصار المسلمين، وخوفهم من الوصول بالصراع المسلح إلى مرحلة الحسم وما يتبعها من الإبادة، حافزاً للدخول في مفاوضات مع المسلمين، والحصول على الأمان وكان وفاء المسلمين للعهود التي يقطعونها، عامل إغراء لطلب مثل هذا الأمان في حالات كثيرة. وكان المسلمون بدورهم لا يمنحون هذا الأمان إلا من موقع الاقتدار، وإلا بعد الاقتناع بأن المعركة قد حققت هدفها، وأن المزيد من القتال لن يؤدي إلا إلى وقوع المزيد من الخسائر التي يمكن توفيرها في إطار مبدأ « المحافظة على القوى ». وبذلك كانت المعركة تحقق التوازن بين هدف الحرب وغاية السلم.

وتصل المعركة الى نهايتها الظافرة، ويتم جمع الغنائم والأسلاب، ويقوم العامل على المغانم باستخلاص خمس بيت الله، ثم يسرع في توزيع ما بقي على المجاهدين في سبيل الله - جندهم ومتطوعتهم - ويأخذ كل نصيبه، وهو نصيب لا يعادل في أفضل الحالات ما بذله هؤلاء من جهد، وما تعرضوا له من معاناة، وما جابهوه من مخاطر، والغنائم ليست هي الهدف وإنما هي بعض التعويض المادي الذي يساعد على تقوية الجند معنوياً أكثر مما يفيدهم مادياً، ذلك أن هذه المغانم هي رمز النصر والبرهان على النجاح. ويستعد الجيش للعودة الى قواعده ويعمل قائد الخميس على إعادة تنظيم قواته ويطلقها بترتيب الارتال على محور، بفواصل متتالية - بحيث يسير كل قسم من أقسام الخميس في يوم معين ثم يتبعه القسم الثاني. وهكذا. وليست طريق العودة مأمونة دائماً. فالعدو الذي أثخنته الجراح يحاول الانتقام لهزيمته، ويحاول رفع معنوياته المنهارة، ويؤكد تصميمه على متابعة حوار الارادات المتصارعة، فيعمل على نصب الكمائن،

وارسال الاغارات، والامساك بالممرات الاجبارية والمضائق الصعبة. ولكنه يجد ان أقسام الخميس قد استعدت لمجابهة مثل هذه الأعمال والرد عليها بما تستحقه من العنف والقسوة.

عاد المجاهدون في سبيل الله الى قواعدهم، ورايات النصر خفاقة فوق رؤوسهم. وقد أضافوا من خلال تجربتهم القتالية الجديدة رفداً لخبرتهم بطبيعة العدو ومسرح اعماله القتالية وطرائقه التي استحدثها، وما استحدثوه بدورهم من أساليب وطرائق. وبذلك كان يتم تطوير فن الحرب الاسلامي عبر تجارب الحروب، ويتزايد الرصيد من خبراتها. ولم يكن هذا التطوير، ولا ذاك الرصيد ملكاً للخليفة أمير المؤمنين ولا للقادة على اختلاف مرتباتهم، وإنما كان ملكاً للمجاهدين في سبيل الله جميعاً. فهل من غرابة في الأمر ان ظهر من بين صفوف المجاهدين وبصورة مستمرة أجيال من القادة الذين تميزوا بكفاءتهم القيادية العالية. لقد كانت المعركة هي مدرسة الحرب الحقيقية لاعداد المجاهدين في سبيل الله الذين يخوضون المعركة بعقول مفتوحة وقلوب مؤمنة، فتتفتح أمامهم مجالات الابداع لإضافة رفد جديد لفن الحرب الإسلامي.

لم تكن (قصة المعركة في العصر العباسي) إلا تطويراً لتلك القصة التي عرفها العرب المسلمون منذ انطلاقتهم الاولى الى دنيا الفتوح. ولقد أظهر العرض السابق مدى التعقيد الذي بلغته قصة المعركة. فلقد تطلبت زيادة حجم الجيش إدارة للحرب اكثر تطوراً وأشد تعقيداً مما تطلبته ادارة الحرب في معارك الفتح الاولى. وهذا لا ينتقص من قيمة تلك الانتصارات المذهلة التي حققها جند الله في تلك الفتوح الرائعة. ولا يزيد من قيمة الانتصارات المماثلة التي حققها الخلف والذين ساروا على درب الآباء والأجداد. واستلهموا خبراتهم وتجاربهم فجعلوا منها أساساً لكل تطور. غير أن من طبيعة الأمور ان يتكيف فن الحرب مع المستجدات. ولقد اكتسب اعداء المسلمين بدورهم خبرات كثيرة من قتالهم للمسلمين، في طرائق العمليات خاصة وفي اساليب حرب الحركة، وأدى ذلك الى زيادة التعقيد في حوار الارادات المتصارعة، فكان لزاما أن يعمل قادة المسلمين بدورهم على تطوير اساليبهم وطرائقهم لمجابهة التحديات المستجدة باستمرار.

ومرة أخرى، كانت معارك السلف ـ أيام الفتح الاولى ـ معارك حذق ومهارة، وأصبحت معارك الخلف ـ ايام العصر العباسي ـ معارك قوة واقتدار، بسبب تزايد حجم الجيوش، ولكنها لم تكن خالية من الحذق والمهارة، إذ لولا هذا الحذق وتلك المهارة لأصبح ـ الخميس ـ مجرد كم او عدد لا ثقل له في ميزان القوى. فالعدد أو الكم هو آخر ما يعتد به في ميزان القوى إن كان محروماً من التكامل مع بقية العوامل ـ وأولها الرصيد المعنوي ـ. ولقد بقيت معارك العصر العباسي امتداداً لحروب الايمان التي عرفتها أيام الفتح الأولى. وكان هذا الإيمان هو العامل الحاسم في تطور المعركة عبر الأزمنة المتتالية. ولم يكن هذا التطور ـ على ما سبق عرضه ـ محدداً في مجال معين، وإنما كان شاملاً لكافة الفعاليات القتالية، بما فيها نشاط المجاهد الفردي. وبكلمة أكثر وضوحاً، لقد تحقق في (المعركة في العصر العباسي) تطور متكامل بداية من ادارة الحرب على المستوى الاستراتيجي وعلى مستوى العمليات. ونهاية بالأعمال التكتيكية التي يمارسها الفرد ومجموعة الأفراد.

٤ ـ تدابير الأمن والحيطة.

وصل فن الحرب في العصر الاموي الى مرتبة متقدمة، فلقد تطلبت الفتوحات معرفة مسارح العمليات معرفة حقيقية، ودراستها دراسة علمية، بداية من معرفة التكون السكاني، ونهاية بالطبيعة الجغرافية والمناخ. ولعل في رسالة عبد الحميد الكاتب ـ في عهد آخر خلفاء بني أمية ـ وفي التنظيم الدقيق لأساليب جمع المعلومات ما يبرهن على تلك الأهمية الكبرى التي احتلتها تدابير الأمن والحيطة، والتي اعتمدت على جمع المعلومات بكل الوسائل المتوافرة والمتاحة. ولقد تطورت اساليب الاستطلاع وتطورت تبعاً لذلك تدابير الأمن والحيطة في العهد العباسي. وكان ذلك أمراً طبيعياً، لابد منه، للتكيف مع تطورات الجيوش. ولقد أظهر عرض مسيرة الأحداث، والأعمال القتالية المتتالية، ان هناك تمييزاً واضحاً في أعمال الاستطلاع، وفي تدابير الأمن والحيطة. ففي مجال الاستطلاع وجمع المعلومات، ظهر الاهتمام الكبير بعمل شبكة العيون ـ الجواسيس ـ والتي كانت تغطي الأقاليم الاسلامية وتمتد الى عمق بلاد العدو. ثم هناك الاستطلاع الخاص بالقوات المسلحة ـ أو بالخميس ـ والذي يعتمد على الطلائع والمقدمات واستجواب السكان والحصول على الأسرى، وفي مجال تدابير الحيطة والأمن هناك تدابير للأمن البعيد، وتدابير الأمن القريب، ثم تدابير الأمن المباشر. ولكل من هذه الأنواع قواته وتنظيماته وأساليبه.

لقد أظهر عرض الأحداث أن دار الخلافة في بغداد كانت تعلم بكل تحرك للروم، وكل استفزاز واعتداء. ليس ذلك فحسب، بل إنها كانت تعرف عدد المسلمين الأسرى عند الروم. وتتابع ما يحدث في بلاط الروم. علاوة على معرفتها بالأقاليم وبالسكان. وقد يكون من السهل اكتساب المعرفة عن طبيعة مسارح العمليات في بلاد الروم وعن أحوال المناخ، فلقد كانت غزوات الصوائف والشواتي طوال العهد الأموي. وفي الصدر العباسي الأول، تسير بانتظام، وتوغل في تقدمها حتى انها دقت أبواب

القسطنطينية مرات عدة. ولهذا فقد كانت هذه المعرفة متوافرة، وكل ما كان مطلوباً معرفته هو ما يقوم به الروم من أعمال هندسية على مقربة من الثغور مثل تنظيم القلاع، وبناء التحصينات وحشد القوات الخ... ولكن كيف استطاعت دار الخلافة الوصول الى وسط بلاط الروم ـ البيزنطيين؟

ولقد عرف العصر العباسي ـ ومن خلال تجربة العهد الأموي أيضاً ـ أهمية الاستطلاع للجبهة الداخلية، وضرورة معرفة ما كان يحدث من تكتلات لمراكز القوى، ومحاولات لشق عصا الطاعة والجماعة، ومتابعة التحركات المريبة. وقد ظهرت في العصر العباسي الأول ـ بخاصة ـ شواهد مذهلة عن تطور عمل شبكات العيون ـ الجواسيس ـ التي كانت تقدم للخليفة ـ أمير المؤمنين المعلومات الدقيقة والموثوقة والمرتبطة بأمن الدولة داخلياً وخارجياً، فما هو التنظيم الدقيق الذي اعتمده خلفاء بني العباس لتحقيق هذه الغاية؟

كانت أرتال التجار تجوب الآفاق بحثاً عن وسائل العيش، وكانت جموع الفلاحين تمارس عملها في كل مكان، حتى في قلب بلاد العدو، وكانت مجموعات الفعلة تعمل حيثما يحتاج العمل لليد العاملة، وبالاضافة الى ذلك، فقد كانت هناك اتصالات رسمية، وتبادل للوفود، وكان المسلمون في كل هذه المجالات وفي سواها عيوناً للدولة الاسلامية العباسية. ولقد كان كل مسلم يعرف عن قناعة، ومن خلال التجربة العملية، أن أمنه الشخصي مرتبط بأمن دولته، وأن أعداء الاسلام يكيدون لكل مسلم، ولهذا فقد كان يشعر ان من واجبه جمع المعلومات بصورة دائمة للإفادة منها في الوقت المناسب، أما في حالات الخطر، وعند ظهور نوايا عدوانية، فسرعان ما كان هؤلاء ينذرون دار الخلافة بكل ما يثير شبهاتهم. بل إنهم كانوا يتوجهون بأنفسهم الى دار الخلافة لتقديم المعلومات التي يعتقدون انها ضرورية للمحافظة على أمن المسلمين. وكان الخلفاء بدورهم يستقبلون في كل وقت مثل هؤلاء الزوار، ويحصلون منهم على ما تضمنته جعبتهم من المعلومات، ويجزلون لهم العطاء عند التأكد من صحة المعلومات. ولم تكن الرغبة في الحصول على العطاء بالتأكيد، وبحسب الشواهد التي أبرزها العرض السابق ـ هو الحافز الأساسي لمعاناة مشقة الطريق، والتعرض للأخطار، من اجل

الوصول بسرعة الى دار الخلافة ولكن الحافز الأساسي هو ذلك الشعور الرائع بوحدة المسلمين، وبالتصميم على دفع كل ضرر أو أذى يلحق بالمجتمع الاسـلامي أيـاً كان مصدره.

هكذا كان كل مسلم عيناً - جاسوساً - لدولته الاسلامية، يتحسس أخبار العدو ويرقب ما حوله بيقظة وحذر. فلا غرابة إذا ما كانت شبكة العيون المتطوعة قد غطت تغطية كاملة أقاليم العدو وبلاد المسلمين على السواء. ولقد ظهر في عرض الحروب الداخلية إن الابن كان ينقل الأخبار عن أبيه، وان الزوجة كـانـت تنقـل الأخبـار عن زوجها أو ابنها، عنـدمـا كـان الأمـر متعلقاً بـأمـن المسلمين وأمـن المجتمـع الاسلامي - هذه هي الصورة العامة لشبكة عيون المتطوعة، ولكن لا بد من القول أيضاً ان هناك حالات كثيرة ظهر فيها ضعف شبكة العيون - الجواسيس - سواء في تغطيتها للجبهة الخارجية أو في مجال تغطيتها للجبهة الداخلية، وإلا لما تمكنت قوات العدو من معرفة ما يحدِث في ديار الاسلام، بدقة مماثلة لدقة المعلومات التي كان يحصل عليها المسلمون.

يظهر ذلك أن الحرب بين شبكات العيون - الجاسوسية - هي حرب ليست من مستجدات الأزمنة الحديثة، وإنما هي قديمة ربما قدم تاريخ البشرية على الأرض. وما يهم البحث هنا هو أن هذه الحرب قد أخذت في العصر العباسي شكلاً منظماً ارتبط بالمذهب العسكري وبالعقيدة الدينية للأطراف المتصارعة. فكان للروم - البيزنطيين - خاصة شبكات عيونهم التي تمتد حتى دار الخلافة. وهذا ما يفسر حرص امراء المؤمنين، وأباطرة الروم على الاحتفاظ بأسرارهم - الخاصة بالحرب - وعدم البوح بها إلا في الدائرة المضمونة. وهذا ما يفسر أيضاً سبب حرص الانسان المسلم على نقل المعلومات التي يحصل عليها بنفسه، وعدم البوح بها لأي انسان. وكان من السهل تحقيق التقاطع في المعلومات للتأكد من صحتها، إذ سرعان ما يتوافر اكثر من متطوع لنقل المعلومات الهامة والخطيرة. وكانت هناك شبكات العيون المرتبطة بأمير المؤمنين، حيث كان خلفاء بني العباس يحرصون على تنظيم شبكات بأنفسهم، وترتبط بهم مباشرة، للحصول على المعلومات. كما كان امراء الأقاليم، وقادة الثغور، وقادة الحصون،

ينظمون عمليات الاستطلاع وجمع المعلومات لحماية أنفسهم وقواتهم، وكان توافر المعلومات لدى هؤلاء العمال، يغذي الخلفاء وبسرعة بالمعلومات التي يحصلون عليها من المتطوعة ومن شبكات عيونهم الخاصة. ولعل الأمر المثير هو الحرص على انتقاء عناصر العيون ممن تتوافر لهم كفاءات مميزة ـ كالذكاء الحاد، والقدرة على الكتمان، والحذر. وكان كل طرف يحاول اخفاء شبكات عيونه، وعناصره، فقد كان عددهم قليلاً نسبياً، إلا أنهم كانوا يشكلون الطبقة المختارة التي تضطلع بأعباء عمل خطير. ولهذا كان الاتصال بهم محرماً، فإذا ما انكشف امر أحدهم كان ذلك نهاية له في عمله. وتجدر الإشارة الى انه بالرغم من الثقة الممنوحة لهؤلاء، فقد كانت المعلومات التي يحصلون عليها موضع التدقيق ـ والتقاطع ـ خوفاً من ازدواجية عمل هؤلاء العيون، والخشية من تقديم معلومات مدسوسة يريد العدو ايصالها لخداع القيادة المعادية. ويظهر انه قد حدث مثل ذلك، سواء عن حسن نية او عن سوء نية، فكانت معلوماتهم تستقبل بالحذر الى ان تتبين صحتها ودقتها من خلال مقاطعتها مع معلومات المصادر الأخرى. وكان العيـون ـ من المتطوعة ومن المأجورين ـ يعرفون أهمية السرعة في نقل المعلومات، وضرورة استخدامها في الوقت المناسب، فكانوا يختارون أفضل السبل وأضمنها واكثرها سرعة لإيصال المعلومات.

تلقى أمير المؤمنين ـ الخليفة ـ الانذار بتحرك قوات العدو ونواياه. واستنفر قواته، وشرع الجيش في تحركه، وهنا تتزايد كثافة العيون ويتضاعف نشاط الشبكات حيث تبذل كافة الجهود لمتابعة تحركات العدو، ومعرفة حجم القوات، وقياداتها، واتجاهاتها، وأعمالها وأهدافها الخ... وتتدفق المعلومات باستمرار، فيسير الخميس للقاء العدو وهو يرى هدفه بوضوح من خلال شبكات العيون ـ الجواسيس ـ الذين يتابعون عملهم حتى أثناء وقوع الصدام، لكشف نقاط ضعف العدو. وهنا تقترن معلومات العيون بمعلومات شبكات استطلاع الجيش.

لقد ظهر أن عمل الطلائع والمقدمات كان في العصر العباسي على نحو يشابه كثيراً عمل أجهزة الأمن في الأزمنة الحديثة. حيث كانت الطلائع تعمل على استجواب السكان المدنيين. وتحصل على المعلومات بالاغراء المادي احياناً، وبالاكراه في أحيان

أخرى. ويعمل قادة هذه المفارز على نقل ما يتوافر لهم من المعلومات الى قائد الخميس بصورة مباشرة. وفي الوقت ذاته يقوم قائد الخميس بإمداد قادته بالمعلومات الضرورية التي تساعدهم على تحقيق واجباتهم. وهكذا يستمر سيل المعلومات في العمل على الاتجاهات المختلفة. وبالرغم من وفرة المعلومات فقد يجد قائد الخميس أنه بحاجة لمعلومات معينة تتطلب الحصول على أسرى من منطقة محددة. وقد يجد قادة أقسام الخميس أنهم بحاجة أيضاً لأخذ أسرى والحصول على معلومات خاصة بهم. فيتم تنظيم عمليات للحصول على أسرى. ويقوم قادة أقسام الخميس باستخلاص المعلومات التي تفيدهم ثم يوجهون هؤلاء الأسرى الى أمير المؤمنين ـ أو من يمارس دوره ويضطلع بعمله في قيادة الخميس ـ فيقوم باستجواب الأسرى شخصياً. ويحسن معاملتهم، مقابل ما يقدمونه من خدمات ومعلومات. وبدهي ان العدو يمارس الدور ذاته، وكان ذلك سبباً في حمل القيادات على تبديل مخططاتها القتالية باستمرار، وإعادة تنظيم ترتيباتها.

لقد كان مخطط عمل شبكات العيون ـ الجواسيس ـ مرتبطاً بالمخططات الخداعية. حيث كان يحاول كل طرف التكتم على أهدافه ونواياه، وتقديم بدائل خداعية لتضليل العدو عن الأهداف الحقيقية. وكان الخيال يمارس دوره الكبير في ابتكار وابداع الطرائق الخداعية التي تبدأ ببث معلومات كاذبة، وتنتهي بمناورات خداعية. وكانت الخبرات المتوافرة لدى العيون، وامكاناتهم للوصول إلى مصادر المعلومات الأكثر صحة ودقة، هي المقياس لنجاح هؤلاء العيون في تنفيذ واجباتهم والاضطلاع بأعمالهم. وكما كان عمل شبكات العيون مرتبطاً بأمير المؤمنين، فكذلك كان وضع المخططات الخداعية من عمله. فهو المسؤول الأول والأخير عن جند المسلمين، أمام الله، وعليه اتخاذ كافة الاجراءات الضرورية لحمايتهم، وتأمين الظروف المناسبة لتحقيق واجباتهم بنجاح.

لقد كان الصراع بين شبكات العيون ـ الجواسيس ـ صراعاً مريراً، ولهذا فقد كان من المعتاد اتخاذ جميع الترتيبات الوقائية من عمل شبكات الجواسيس المعادية، وكان من أولها المحافظة على السر حتى اللحظة الأخيرة. وكان من السهل ضمان هذا الأمر إذ إن القرار بالحرب يبقى معلقاً بكلمة أمير المؤمنين من جهة، وبامبراطور الروم من جهة

ثانية، وتأتي بعد ذلك سرعة التحركات لتسهم في المحافظة على السر قدر المستطاع. وكذلك، فإن اسهام كل مواطن مسلم بالمحافظة على الأمن، ومراقبة كل ما يثير من الشبهات كان عاملاً كبيراً في احباط عمل العيون ـ الجواسيس ـ وبالرغم من ذلك فقد كان لا بد من اتخاذ تدابير الحيطة لحماية القوات من كل مباغتة محتملة أو متوقعة، وكانت تدابير الحيطة متنوعة تتناسب مع كل موقف من المواقف.

كانت الطلائع تسير متقدمة أثناء تحرك القوات حتى الأفق البعيد للتحرك، وتتبعها المقدمات على مسافة كافية، ثم تأتي الكتلة الرئيسة للقوات. وكانت المجنبات تفرز بدورها قوات لحمايتها على مسافة كافية، وهذا ما تفعله أيضاً المؤخرة ـ الساقة ـ. وكانت هذه القوات بمجموعها تشكل نطاق أمن القوات. وكان عمل الطلائع ينحصر باستطلاع الأقليم واحتلال النقاط الحساسة ـ الجسور المضائق ـ ولم يكن واجبها خوض المعركة، وإنما كان واجبها اكتشاف العدو، وتحديد مكانه وقوته، فإذا ما اصطدمت بقوات صغيرة للعدو ـ عادة ما تكون قوات استطلاع مماثلة ـ فإنها تعمل على مهاجمتها وتدميرها ومتابعة سيرها، أما إذا كانت القوات اكبر من قدرتها، فإنها تشتبك معها، أو تحاول تثبيتها، وتنذر قوات المقدمة التي تسرع لدخول المعركة بعد أن تكون قد نظمت نفسها للهجوم، وتعمل على تدمير قوات العدو، أما إذا لم تتمكن من ذلك فهذا يعني أنها اشتبكت بالكتلة الرئيسة للعدو، ومن أجل ذلك فإنها تحاول متابعة المعركة لتثبيت العدو، مما يفسح المجال أمام الكتلة الرئيسة للقوات للتدخل وخوض المعركة، وقد يحاول العدو التظاهر بالانسحاب على اتجاه معين ليفصل المقدمة عن كتلة القوات الرئيسة، وجذبها إلى منطقة يكون قد نظم فيها كميناً لابادتها. إلا أن المقدمة، بما عرفته من تجارب لا تحاول تغيير اتجاهها. أو الانجذاب نحو الاغراء، فتترك للعدو فرصة الانسحاب، إلا أنها تحاول مشاغلته، ومتابعة تحركه بقوات صغيرة. مع نقل التطورات باستمرار إلى قائد الخميس، ليكون على اطلاع بالموقف.

وقد يحاول العدو دفع قوات لمهاجمة مجنبات قوات المسلمين ومؤخرتها، وتعمل قوات نطاق الأمن بالطريقة ذاتها، فهي تحاول القضاء على القوات المعادية وإزالة تهديدها مما يتيح الفرصة لكتلة القوات الرئيسة لمتابعة تحركها دون توقف، غير أن

قوات الهجوم المعادية قد تشكل تهديداً خطيراً مما يدفع قائد الخميس على مجابهة الموقف بما يستحقه، فإذا تطلب الأمر مجابهة التهديد بقوات اكبر ـ فإنه يدفع من القوات الاحتياطية ما يكفي لدعم الجهة التي تتعرض للتهديد. أما إذا كانت قوات الهجوم تشكل تهديداً خطيراً. فإن القوات الرئيسة تتوقف، ويتم تنظيم القوات لخوض المعركة مع هذه القوات. وهكذا تبقى كتلـة القوات الرئيسة في مأمن من كل مباغتة، ويكون لديها ما يكفي من الوقت للعمل بصورة منظمة. ويظهر من خلال ذلك أن قوات نطاق الأمن عادة ما تكون جميعها من الفرسان، وقد يقتضي الموقف دعم قوات نطاق الأمن ـ المقدمات خاصة ـ بوحدات ومفارز من الفعلة لتمهيد الطرق، وتنظيم العبور، وعادة ما يحمل هؤلاء معهم اعتدة ثقيلة. ولكن بالرغم من ذلك فإن هذه الوحدات والمفارز عادة ما تكون من الفرسان أيضاً حتى تتمكن من متابعة السير مع المقدمات والطلائع، ودون أن تسبب لها أية إعاقة.

لم تكن تدابير الحيطة والأمن عند التوقف ـ أثناء المسير ـ مختلفة عن تلك التي يتم اتخاذها لإقامة طويلة. فقد كانت هناك رائدة ترتاد مكان نزول القوات للراحة بعد عناء المسير. وكانت هناك شروط معينة لمكان النزول مثل توافر المياه والطعام وسهولة الدفاع. وتقوم الرائدة بتحديد أماكن نزول كل قسم من أقسام الخميس. وعندما يصل الخميس إلى منطقة النزول، يتم توجيه كل قسم نحو مقر نزوله. وتشرع القوات على الفور بحفر الخنادق حول المعسكر ـ المخيم ـ ونصب الحسك ـ وأثناء ذلك تكون نقاط المراقبة قد اندفعت لتحتل مواقع مشرفة تسمح لها باستطلاع ما حولها وكشف كل تحرك مشبوه ـ وواجب هذه النقاط هو الرصد والانذار والانسحاب وبالاضافة إلى ذلك، ينظم كل قسم من أقسام الجيش الحراسة حول مواقعه. فيما تبقى قوة احتياطية جاهزة لمجابهة حالة الطوارىء ـ مثل وقوع إغارة أو هجوم مباغت تقوم به قوات العدو ـ وهذا ما يتيح لقائد الخميس، ولجيشه فرصة العمل لمجابهة كل موقف. ويظهر ذلك مـدى الارتبـاط الوثيـق بين تنظيمات الاستطلاع المختلفـة وبين تـدابير الحيطـة والأمن. وكل ذلك حتى تكون القوات جاهزة باستمرار لدخول المعركة بشكل منظم، وتجنب المآزق والمواقف الصعبة التي يسببها وقوع المباغتة، سواء على مستوى الوحدات

الصغرى أو على مستوى الجيش بكامله.

وبعد قد يكون من المثير حقاً لدى مطالعة ما سبق، مقارنته مع اجراءات الجيوش الحديثة في مجال عمل الاستطلاع والحيطة والأمن، عند تحرك القوات وعند إقامتها، فقد وصل المسلمون قبل ألف عام ونيف إلى القواعد والأسس التي لازالت ثابتة حتى اليوم، رغم كل تطور في العلم العسكري والتقانة، والسبب في ذلك بسيط هو أن الإنسان يبقى دائماً الأساس في كل تطور، ولقد جابه هذا الإنسان في حربه منذ ألف عام - وقبل ذلك أيضاً - من المواقف ما يجابهها اليوم. وكان رده عليها كما هو رده عليها اليوم.

تبقى تجربة - الخميس - في العصر العباسي محتفظة بكل أهميتها. ويستطيع الباحث لدى استقراء مسيرة الأعمال القتالية على نحو ما سبق عرضه - استخلاص الدروس والقواعد في كل مجال - على مستوى عمل القيادة كما هو الأمر على مستوى القوات، وفي مجال التأمين الإداري للقوات كما في مجال التعاون بين مختلف القوات، بل حتى في مجال عمل كل نوع منها. وكذلك في مجال الحرب النظامية كما في مجال الحروب الثورية - بحسب التسميات الحديثة. غير أن هناك نوعاً من العلاقات التي لم تأخذ بعد حقها في مجال الغرض. مثل علاقة الجيش - الخميس - بجيوش المدن. وكذلك علاقة الجيش بالمواطنين. لا سيما بعد أن أصبح هذا الجيش هو مركز الثقل الوحيد في الدولة، ولا سيما أيضاً بعد أن تضخم حجمه إلى حد كبير، فبات بحاجة لنفقات ضخمة، وكان بالمستطاع تأمين هذه النفقات عندما كانت الدولة مستقرة. فكيف بالمستطاع تأمينه إذا ما اضطربت قبضة الدولة وضعفت هيمنتها على أقاليمها - على نحو ما كان عليه الوضع في العصر العباسي الثاني؟...

٥ ـ الخميس ـ والخلافة .

لقد تضخم جيش الخليفة ـ أمير المؤمنين ـ تضخماً كبيراً ، وأصبح الطامعون في الحكم والسيطرة يتطلعون إلى هذا الجيش باعتباره أداة الحكم والسيطرة ، ونظراً لوفرة الطامحين والطامعين ، فقد كان من غير الصعب التسلل إلى قياداته وضمان ولائها . فكان من الطبيعي أن يتعرض هذا الجيش للتفتت الداخلي والتمزق . ويمكن للباحث أن يجد في الكامل في التاريخ ـ احداث سنة ٣١٧ هـ ـ ٩٢٩ م ـ نموذجاً لذلك . فقد عمل الخليفة المقتدر بالله عزل وزيره مؤنس وعين هارون بن غريب مكانه . فخرج مؤنس إلى الشماسية ، وجمع الجيش حوله ، وانضم إليه نازوك الحاجب وعبد الله بن حمدان . فكتب مؤنس إلى الخليفة المقتدر : « بأن الجيش عاتب منكر للسرف فيما يطلق باسم الخدم والحرم من الأموال والضياع ولدخولهم في الرأي وتدبير المملكة . وهم يطالبون بإخراجهم من دار الخلافة ، وأخذ ما في أيديهم من الأموال والأملاك ـ وكذلك إخراج هارون بن غريب من دار الخلافة » وأجاب المقتدر بتوجيه رسالة إلى مؤنس جاء فيها : « ... وأما نازوك فلا أدري سبب عتبه واستيحاشه ، فوالله ما أعنتُ عليه هارون حين حاربه ، ولا قبضت يده حين طالبه ، والله يغفر له سوء ظنه . وأما عبدالله ابن حمدان فلا أعرف شيئاً أحفظه ـ أغضبه ـ إلا عزله عن الدينور ، وما كنا عرفنا رغبته فيها ، وإنما أردنا نقله إلى ما هو أجل منها . وما لأحد عندي إلا ما أحب لنفسه ، فإن أريد بي نقض البيعة فإني مستسلم لأمر الله ، وغير مسلم حقاً ما خصني الله به . **وأفعل ما فعل عثمان بن عفان رضي الله عنه . ولا ألزم نفسي حجة ، ولاآتي في سفك الدماء ما نهى الله عنه إلا في المواطن التي حدها الله في الكافرين والبغاة من المسلمين ، ولا أستنصر إلا بالله لما أؤمله من الفوز في الآخرة . وإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون »** . فلما قرىء كتاب المقتدر في العسكر ، وثب وجوه الجيش ، وقالوا : « نمضي إلى دار الخليفة لنسمع منه ما يقول » . وبلغ ذلك المقتدر فأخرج عن الدار كل من كان يحمل سلاحاً وجلس على سريره ، وفي حجره مصحف

يقرأ فيه، وأقام بنيه حوالى نفسه، وجاء الجند فنهبوا الدار، ومحوا رسوم الخلافة، وهتكوا الحرمة، وصاروا من أخذ الجوهر والثياب والفرش والطيب إلى ما لا قدر عليه. ووجه نازوك بالليل من نهب دار هارون بن غريب الخال بنهر المعلى، وداره بالجانب المغربي، وأحرقتا جميعاً. ونهبت دور الناس طوال ليلة السبت، فكانت من أشأم الليالي على أهل بغداد، وأشهد كل لص وجاني جناية ومقتطع مال وفتقوا السجون التي كانوا فيها. وأصبح الناس على مثل ذلك، إلى أن ركب نازوك، وأظهر الانكار لما أحدث من النهب. ودخل مؤنس والجيش دار الخليفة، وأخرج المقتدر ووالدته وخالته وخواص جواريه وأولاده، وحملوا إلى دار مؤنس فاعتقلوا بها. وجاء مؤنس بقاضي القضاة، وأشهده على خلع المقتدر لنفسه، وتنصيب أخيه القاهر بالله محمد بن المعتضد، ولما استقر الأمر للقاهر، أخرج مؤنس المظفر علي بن عيسى من الحبس، ورتب أبا عليّ بن مقلة في الوزارة، وأضاف إلى نازوك مع الشرطة حجبة الخليفة، وكتب إلى البلاد بذلك. وأقطع ابن حمدان مضافاً إلى ما بيده من أعمال طريق خراسان كل من حلوان والدينور وهمذان وكشكور وكرمان وشاهان والراذنات ودقوقى وخانيجار ونهاوند والصيمرة والسيروان وماسبذان وغيرها، ونهبت دار الخليفة، ومضى بني بن نفيس إلى تربة لوالدة المقتدر، فأخرج من مخبأ فيها ستمائة ألف دينار، وحملها إلى دار الخليفة.

وأصدر نازوك بعد أن أصبح مسؤولاً عن حجبة الخليفة، أمراً إلى الرجال المصافية بقلع خيامهم من دار الخليفة، وأمر رجاله وأصحابه أن يقيموا بمكان المصافية، فعظم ذلك عليهم. وتقدم إلى خلفاء الحجاب بألا يدخل أحد إلى دار الخليفة إلا من له مرتبة. فاضطربت الحجبة، ومضى يومان على ذلك، وجاء اليوم الذي تقرر أن تتم فيه مراسم تنصيب الخليفة الجديد ـ القاهر بالله محمد بن المعتضد ـ وامتلأت الممرات والمراحات والرحاب وشاطيء دجلة من الناس. وحضر الرجالة المصافية في السلاح الشاك يطالبون بحق البيعة ورزق سنة وهم حانقون بما فعل بهم نازوك، وارتفعت زعقات الرجالة. فسمع بها نازوك، فأشفق أن يجري بينهم وبين أصحابه فتنة وقتال، فتقدم إلى أصحابه وأمرهم أن لا يتعرضوا لهم ولا يقاتلوهم. وزاد شغب الرجالة وهم

يريدون الصحن التسعيني، فلم يمنعهم أصحاب نازوك. ودخل كل من على الشط بالسلاح، وقربت زعقاتهم من مجلس القاهر بالله.. وهرب كل من كان في الدار، وصلبوا نازوك وقائده عجيباً بحيث يراهما من على شاطىء دجلة. ثم سار الرجالة إلى دار مؤنس وأعادوا المقتدر إلى دار الخلافة. وجاء القاهر إلى أخيه وهو يبكي ويقول: «يا أمير المؤمنين - نفسي نفسي، اذكر الرحم التي بيني وبينك» فأجابه المقتدر: «يا أخي قد علمت أنه لا ذنب لك، وأنك قهرت ولو لقبوك بالمقهور لكان أولى من القاهر... وحق رسول الله ﷺ لا جرى عليك سوء مني أبداً، ولا وصل أحد إلى مكروهك وأنا حي»... وسكنت الفتنة. وأما بُنَي بن نفيس ومن معه، وكانوا من أشد القوم على المقتدر فهربوا عن بغداد إلى الموصل. ومنها إلى أرمينية، ودخلوا القسطنطينية فتنصروا. وأحضر المقتدر أبا علي بن مقلة وأعاده إلى وزارته. وكتب إلى البلاد بما تجدد له. وأطلق للجند أرزاقهم وزادهم. وباع ما في الخزائن من الأمتعة والجواهر. وأذن في بيع الأملاك من الناس، فبيع ذلك بأرخص الأثمان ليتم أعطيات الجند. لكن ذلك لم يزد الجند إلا إذلالاً واستطالة، وصاروا يقولون أشياء لا يحتملها الخلفاء، منها أنهم كانوا يقولون: **«من أعان ظالماً سلطه الله عليه»** وكذل: **«من يصعد الحمار إلى السطح يقدر أن يحطه»** ومثل: **«إن لم يفعل المقتدر معنا ما نستحقه قاتلناه بما يستحق»**. وكثر شغبهم ومطالبتهم وأدخلوا في الأرزاق أولادهم وأهليهم ومعارفهم، وأثبتوا أسماءهم، فزادت عدتهم على عشرين ألفاً، وزادت أُعطياتهم في الشهر على مائة ألف وثلاثين ألف دينار. واتفق أن شغب الفرسان في طلب أرزاقهم، فقيل لهم: **«إن بيت المال فارغ - وقد انصرفت الأموال إلى الرجالة - المشاة»** فثار بهم الفرسان، فاقتتلوا، فقتل من الفرسان جماعة، واحتج المقتدر بقتلهم على الرجالة - المشاة - وأمر قائد الشرطة - محمد بن ياقوت - بإخراجهم من بغداد، ومن أقام قبض عليه وحبس، وهدمت دور غرمائهم وقبضت أملاكهم، وهاج السودان تعصباً للرجالة المشاة. فسار إليهم محمد وأوقع بهم وأحرق منازلهم، فاحترق فيها جماعة كثيرة منهم ومن أولادهم ومن نسائهم، فخرجوا إلى واسط، واجتمع بها منهم جمع كثير، وتغلبوا عليها، وطرحوا عامل الخليفة، فسار إليهم الجيش وأوقع بهم واكثر

القتل فيهم، فلم تقم لهم بعدها راية، وطلبوا الأمان وسألوا الصفح، فرفع عنهم القتل وحبس منهم الوجوه، وأسقطت عنهم الجرايات. وكتب الوزير محمد بن علي بن مقلة فيهم نسخة أنفذت إلى القواد والعمال وهي: «**بسم الله الرحمن الرحيم. قد جرى أعزك الله من أمر الرجالة المصافية بالحضرة ما قد اتصل بك وعرفت جملته وتفصيله وجهته وسبيله. وقد خار الله عز وجل لسيدنا أمير المؤمنين وللناس بعده بما تهيأ من قمعهم وردعهم خيرة ظاهرة متصلة بالكفاية الشاملة التامة بمن الله وفضله، ولم ير سيدنا أيده الله استصلاح أحد من هذه العصبة إلا السودان فإنهم كانوا أخف جناية وأيسر جريرة فرأى أعلى الله رأيه اقرارهم على ارزاقهم القديمة، وتصفيتهم بالعرض على المحنة، لعلمه أن العساكر لا بد لها من رجالة ـ مشاة ـ وأمر أعلى الله أمره أن يستخدم بحضرته من تؤمن بائقته وتخف مؤنته وترجى استقامته، وبالله ثقة أمير المؤمنين وتوفيقه وقبلك وقبل مثلك رجالة أنت أعلم بمن مرضت طاعته منهم ومن يعود إلى صحة وصلاح فإن قنع من ترضاه منهم بأصل الجاري عليه فتمسك به وأقره على جاريه ومن رأيت الاستبدال به، فأمره إليك ـ والله المستعان**». ولكن قصة الجند لم تصل إلى نهايتها، ففي تلك السنة ذاتها (٣١٨ هـ = ٩٣٠ م) شغب الفرسان وتهددوا بخلع الطاعة، فأحضر المقتدر قوادهم بين يديه، ووعدهم الجميل، وأن يطلق أرزاقهم في الشهر المقبل، فسكنوا. ثم شغب الرجالة ـ المشاة ـ فأطلقت أرزاقهم. وكان من نتيجة ذلك أن تجرأ الجند على الخليفة، فلما كانت (سنة ٣٢٠ هـ = ٩٣٢ م) عاد مؤنس لممارسة دور قيادة المؤامرة ـ ووجه الجند، فقتل المقتدر، ونصب القاهر بالله مرة أخرى. ولكن القاهر ما لبث أن أفاد من انقسام الجند، فانتصر ببعضهم على بعض وتمكن من قتل مؤنس، وتخلص من معسكره، ومن أنصاره.

لقد كان من نتيجة ما سبق ضعف الخلافة، وربما كان ضعف الخلافة هو السبب فيما حدث، وعلى كل حال، فالعلاقة بين ضعف الأولى وضعف الثانية (أي بين ضعف القيادة وتفتت الجيش وانحرافه) هي علاقة ثابتة ودائمة. وقد أدى ذلك إلى ظهور نتيجتين هامتين: **أولاهما** ـ الانتقاص من قيمة الجيش النظامي أو ـ الخميس ـ. مقابل

زيادة الاعتماد على مراكز القوى ـ مثل البويهيين والسلاجقة وسواهم. **وثانيتها**: زيادة نفوذ الوزراء الذين يمثلون مراكز القوى المتصارعة وقد كانت هذه الزيادة في النفوذ على حساب ضعف الخلافة. ولعل أفضل ما يمثل هذه الحقيقة هو ما حدث سنة ٣٦١ هـ = ٩٧١ م ـ مما سبق ذكره، ومما يمكن استعادة صورته ـ ففى هذه السنة هاجم الروم بلاد الجزيرة الشامية ـ الرها ونصيبين وسواهما ـ. وارتاعت العواصم والثغور. وسار جماعة من أهل تلك البلاد إلى بغداد مستنفرين، وقاموا في الجوامع والمشاهد. واستنفروا المسلمين، وذكروا ما فعله الروم من القتل والنهب والأسر والسبي، واجتمع أهل بغداد، وقصدوا دار الخليفة الطائع لله، وأرادوا الهجوم عليه، فمنعوا من ذلك، وأغلقت الأبواب. وكان الوزير ـ بختيار بن معز الدولة البويهي ـ حينئذ يتصيد بنواحي الكوفة. فخرج إليه وجوه أهل بغداد مستغيثين، منكرين عليه اشتغاله بالصيد، وقتال ـ عمران بن شاهين وهو مسلم ـ وترك جهاد الروم، ومنعهم عن بلاد الإسلام حتى توغلوها، فوعدهم التجهز للغزاة. وأرسل إلى الحاجب سبكتكين يأمره بالتجهز للغزو وأن يستنفر العامة. ففعل سبكتكين ذلك، فاجتمع من العامة عدد كثير لا يحصون كثرة، وكتب بختيار إلى أبي تغلب بن حمدان صاحب الموصل يأمره بإعداد الميرة والعلوفات، ويعرفه عزمه على الغزاة، فأجابه بإظهار الفرح وإعداد ما طلب منه. ثم إن بختيار أنفذ إلى المطيع لله يطلب منه مالاً يخرجه في الغزاة، فقال المطيع: « إن الغزاة والنفقة عليها وعلى غيرها من مصالح المسلمين تلزمني، إذا كانت الدنيا في يدي. وإذا كانت تجبى إلي الأموال. وأما إذا كانت حالي هذه، فلا يلزمني شيء من ذلك، وإنما يلزم من البلاد في يده. وليس لي إلا الخطبة. فإن شئتم أن أعتزل فعلت ». وترددت الرسائل بينهما حتى بلغت إلى التهديد، فبذل المطيع لله أربعمائة ألف درهم، واحتاج إلى بيع ثيابه وأنقاض داره وغير ذلك. وشاع بين الناس من العراقيين وبين حجاج خراسان وغيرهم أن الخليفة قد صودر. وثارت فتنة عظيمة ببغداد، وبرزت العصبية الزائدة، وتحزب الناس، وظهر العيارون ـ قطاع الطرق ـ وأظهروا الفساد وأخذوا أموال الناس وأحرقت الدور. وفي جملة ما احترق محلة الكرخ وكانت مركز التجار والشيعة. حيث تعصب الشيعة للنقيب أبي أحمد الموسوي،

وتعصب السنة للوزير أبي الفضل الشيرازي. وقبض بختيار المال من الخليفة، وأفاد من الفتنة فبطل حديث الغزاة.

يمكن بعدئذ القفز من فوق الاحداث المشابهة، والقراءات التاريخية المماثلة، لمطالعة ما ذكر في سنة ٤٢٦ هـ = ١٠٣٤ م عن انحلال أمر الخلافة والسلطنة ببغداد حتى إن بعض الجند خرجوا إلى قرية ـ يحيى ـ فلقيهم أكراد، فأخذوا دوابهم، فعادوا الى ـ قراح الخليفة القائم بأمر الله، فنهبوا شيئاً من ثمرته، وقالوا للعاملين فيه: «أنتم عرفتم حال الأكراد ولم تعلمونا» فسمع الخليفة الحال، فعظم عليه ولم يقدر ـ الوزير جلال الدولة ـ على أخذ أولئك الأكراد لعجزه ووهنه، واجتهد في تسليم الجند الى نائب الخليفة، فلم يمكنه ذلك. فتقدم الخليفة إلى القضاة بترك القضاء والامتناع عنه. وإلى ترك الشهود بترك الشهادة، وإلى الفقهاء بترك الفتوى. فلما رأى جلال الدولة ذلك، سأل أولئك الأجناد ليجيبوه إلى أن يحملهم إلى ديوان الخليفة، ففعلوا. فلما وصلوا إلى دار الخليفة أطلقوا. وعظم أمر العيارين ـ اللصوص وقطاع الطرق ـ وصاروا يأخذون الأموال ليلاً ونهاراً ولا مانع لهم. لأن الجند يحمون على السلطان ونوابه، والسلطان عاجز عن قهرهم. وانتشر العرب في البلاد فنهبوا النواحي وقطعوا الطريق وبلغوا إلى أطراف بغداد حتى وصلوا إلى جامع المنصور وأخذوا ثياب النساء في المقابر. فخرج أبو سعد وزير جلال الدولة مفارقاً للوزارة. ووزر بعده أبو القاسم. وكثرت مطالبات الجند، فهرب، فأخرج وحمل إلى دار المملكة مكشوف الرأس في قميص خفيف. وكانت وزارته هذه شهرين وثمانية أيام، وعاد أبو سعد بن عبد الرحيم إلى الوزارة. ولم يلبث الجند أن ثاروا على جلال الدولة، وأرادوا اخراجه من بغداد، فاستنظرهم ثلاثة أيام، فلم ينظروه، ورموه بالآخر، فأصابه بعضهم. واجتمع الغلمان، فردوهم عنه، فخرج من باب لطيف في سمارية متنكراً، وصعد راجلاً منها إلى دار المرتضى بالكرخ. وخرج من دار المرتضى وسار إلى رافع بن الحسين بن مقن بتكريت. وكسر الأتراك أبواب داره ودخلوها ونهبوها وقلعوا كثيراً من ساجها وأبوابها. فأرسل الخليفة إليه، وقرر أمر الجند وأعاده الى بغداد.

هكذا، أصبح الخليفة ـ بشخصه وبمكانته الدينية ـ هو مركز القوة، ولم تعد به

حاجة للخميس، فاذا كانت مراكز القوى تعتمد على الجند الكثيف للمحافظة على وجودها، فان هذا الجند الكثيف سرعان ما يتحول إلى عبء ثقيل على صاحبه. وكان باستطاعة الخليفة، وهذا ما فعله، أن يعتمد على قائد مركز القوة، طالما بقي قائد هذه القوة مالكاً لزمامها ومسيطراً عليها، وطالما أنه وقوته بقي مخلصاً للاسلام وأهله، وخاضعاً بالولاء للخليفة، فإذا ما تغير، كان باستطاعة الخليفة الاعتماد على مركز أقوى، ويدين للخليفة بولاء أكبر. ولعل في قصة ارتباط الاتراك الغز بالسلاجقة، أفضل نموذج لمثل هذه العلاقة.

كان الاتراك الغز ـ السلاجقة ـ بقيادة طغرل بك ـ قد بسطوا سلطتهم على اقاليم الشرق ـ بلاد فارس وخراسان حتى حدود الهند ـ في سنة ٤٤٦ هـ = ١٠٥٤ م. وفي هذه الفترة كان قائد الديلم ـ البساسيري ـ قد بسط هيمنته على بغداد، وعمل وزيراً للخليفة، وكان الأكراد ـ بني مروان ـ يسيطرون على الجزيرة الشامية. وقد خضع الخليفة للبساسيري مكرهاً رغم إظهار البساسيري للتشيع، ومكاتبته لخلفاء الفاطميين ـ العلويين ـ بمصر، ودعائه لهم على المنابر. فلما كانت السنة التالية (٤٤٧ هـ = ١٠٥٥ م) ثارت فتنة ببغداد بالجانب الشرقي بين العامة، وثار جماعة من أهل السنة، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحضروا الى الديوان ـ ديوان الخليفة ـ وطلبوا أن يؤذن لهم في ذلك، وان يتقدم إلى أصحاب الديوان بمساعدتهم فأجيبوا إلى ذلك. وحدث من ذلك شر كثير. ثم إن أبا سعد النصراني صاحب البساسيري حمل في سفينة ستمائة جرة خمراً ليحدرها إلى البساسيري بواسط، فحضر ابن سكرة الهاشمي وغيره من الأعيان في هذا الباب وتبعهم خلق كثير، ومعهم حاجب باب المراتب من قبل ديوان الخليفة ـ وقصدوا السفينة، وكسروا جرار الخمر وأراقوه، وبلغ ذلك البساسيري فعظم عليه. وكتب فتاوى أخذ فيها تواقيع الفقهاء الحنفية بأن الذي فعل من كسر الجرار وإراقة الخمر تعد غير واجب، لأنها ملك رجل نصراني. وتردد القول في هذا المعنى. وزاد ذلك من غضب أهل السنة، فحضروا إلى دار الخلافة، واستأذنوا في قصد دور البساسيري ونهبها، فأذن لهم في ذلك فقصدوها ونهبوها وأحرقوها، ونكلوا بنسائه وأهله ونوابه. ونهبوا دوابه وجميع ما يملكه ببغداد. وتم ابعاد البساسيري

وأصبح الملك الرحيم هو وزير الخليفة رغم أنه كان من الديالمة ـ الاتراك ـ أيضاً ـ ومن أنصار البساسيري ـ.

كان طغرل بك في هذه الأثناء يغزو بلاد الروم، وعاد من غزاته الى همذان، وأعلن أنه يريد الحج وإصلاح طريق مكّة والمسير الى الشام ومصر وإزالة المستنصر العلوي وحكمه. وكتب بذلك إلى أصحابه بالدينور وقرميسين وحلوان وغيرها، وأمرهم باعداد الأقوات والعلوفات، فعظم الإرجاف ببغداد، وفت في أعضاد الناس، وشغب الأتراك ـ الديالمة ـ ببغداد، وقصدوا ديوان الخلافة. ووصل السلطان طغرل بك إلى حلوان وانتشر أصحابه في طريق خراسان. فأجفل الناس إلى غربي بغداد. وأخرج الأتراك خيامهم إلى ظاهر بغداد. وكتب الخليفة الى الملك الرحيم رسالة جاء فيها أن ـ البساسيري ـ قد خلع الطاعة وكاتب الاعداء ـ العلويين في مصر ـ. وأن للخليفة على الملك الرحيم عهوداً وله على الخليفة مثلها. فإن آثر البساسيري، فقد قطع ما بينهما من عهود، وإن أبعده وجاء من واسط الى بغداد فإنه سيسند إليه تولي الديوان وتدبير أمره. فقال الملك الرحيم ومن معه: (نحن لأوامر ديوان الخليفة متبعون وعن البساسيري منفصلون». وسار البساسيري الى بلد نور الدولة دبيس بن مزيد لمصاهرة بينهما. وتوجه الملك الرحيم الى بغداد. وأرسل طغرل بك رسولاً الى الخليفة يبالغ في إظهار الطاعة والعبودية. كما كتب إلى الأتراك البغداديين يعدهم الجميل والإحسان. فأنكر الأتراك ذلك. وكتبوا الى الخليفة رسالة جاء فيها بأنهم ما تخلوا عن البساسيري وهو كبيرهم ومقدّمهم، وأطاعوا أمير المؤمنين الخليفة، إلا بعد أن وعدهم الخليفة بابعاد طغرل بك، ولكن ها هو طغرل بك قد قرب منهم ولم يمنعه الخليفة من المجيء. فأجابهم ديوان الخليفة إجابة غامضة. وفي هذه الفترة دخل الملك الرحيم بغداد، وكتب الى الخليفة رسالة أظهر فيها خضوعه للخليفة، وأسلم أمره إليه ليفعل ما تقتضيه العواطف معه في تقرير القواعد مع السلطان طغرل بك، وكذلك قال من مع الملك الرحيم من الأمراء. فأجيبوا بأن المصلحة أن يدخل الأجناد خيامهم من ظاهر بغداد، وينصبوها بالحريم، ويرسلوا رسولاً إلى طغرل بك يبذلون له الطاعة والخطبة، فأجابوا الى ذلك وفعلوه. وأرسلوا رسلاً إليه. فأجابهم طغرل بك إلى ما طلبوا وبذل لهم

الإحسان. وطلب الخليفة الى الخطباء في المساجد بالخطبة ـ الدعاء ـ لطغرل بك بجوامع بغداد، فخطب له بعد الدعاء للخليفة. وأرسل طغرل بك الى الخليفة يستأذنه في دخول بغداد، فأذن له، وخرج كبار رجال الدولة لاستقباله في موكب عظيم من القضاة والنقباء والأشراف والشهود والخدم وقام رئيس الرؤساء بتقديم رسالة الخليفة الى طغرل بك، واستحلفه للخليفة وللملك الرحيم وأمراء الأجناد. ودخل طغرل بك بغداد، ونزل بباب الشماسية. وانطلق عسكر طغرل بك في شوارع بغداد للامتيار ـ طلب الطعام ـ وشراء ما يريدون من أهلها، وأحسنوا معاملتهم. فلمّا كان الغد جاء بعض العسكر إلى باب الأزج، وأخذ واحداً من أهله ليطلب منه تبناً وهو لا يفهم ما يريدون، فاستغاث عليهم، وصاح العامة بهم ورجموهم، وهاجوا عليهم، وسمع الناس الصياح فظنّوا أن الملك الرحيم وعسكره قد عزموا على قتال طغرل بك، فارتج البلد من أقطاره وأقبلوا من كل حدب ينسلون، يقتلون من الغز من وجد في محال بغداد، إلاّ أهل الكرخ، فإنهم لم يتعرضوا إلى الغز، بل جمعوهم وعملوا على حمايتهم، وبلغ السلطان طغرل بك ما فعله أهل الكرخ من حماية لجنده، فأمر بإحسان معاملتهم. وأرسل وزير طغرل بك ـ عميد الملك ـ الى عدنان بن الرضى نقيب العلويين يأمره بالحضور، فحضر، فشكره نيابة عن السلطان طغرل بك. وترك عنده خيلاً لحراسته وحراسة المحلة. ودخل الملك الرحيم وأصحابه دار الخلافة وأقاموا بها نفياً للتهمة عن أنفسهم ظناً منهم أن ذلك ينفعهم. وأما عسكر طغرل بك، فلما رأوا فعل العامة، وظهورهم من البلد، قاتلوهم، فقتل بين الجمعين أناس كثيرون. وانهزمت العامة، وجرح فيهم وأسر كثير. ونهب الغز درب يحيي ودرب سليم، وبه دور رئيس الرؤساء ـ رئيس الوزراء ـ ودور أهله، فنهب الجميع، ونهبت الرصافة وترب الخلفاء، وأخذ منها من الأموال ما لا يحصى، لأن أهل تلك الأصقاع نقلوا إليها أموالهم اعتقاداً منهم أنها محترمة. واشتد البلاء على الناس وعظم الخوف. وأرسل طغرل بك من الغد الى الخليفة يعتب وينسب ما جرى الى الملك الرحيم وأجناده. ويقول إن حضروا برئت ساحتهم، وإن تأخروا عن الحضور أيقنت أن ما جرى كان بتدبير منهم، وأرسل للملك الرحيم وأعيان أصحابه أماناً لهم، فتقدم إليهم الخليفة بقصده، فركبوا إليه،

وأرسل الخليفة معهم رسولاً يبرئهم مما خامر خاطر طغرل بك من الظن، فلما وصلوا الى خيامه، نهبهم الغز، ونهبوا رسل الخليفة معهم، وأخذوا دوابهم وثيابهم. ولما دخل الملك الرحيم خيمة طغرل بك، أمر بالقبض عليه وعلى من معه، فقبض عليهم كلهم وحبسوا. وأرسل الخليفة الى السلطان ينكر ما جرى من القبض على الملك الرحيم وأصحابه ونهب بغداد. **وذكر له بأنهم إنما جاؤوا إليك بأمري وأماني، فإن اطلقتهم، وإلاّ فانا أفارق بغداد فإنما أنا اخترتك واستدعيتك اعتقاداً مني ان تعظيم الأوامر الشريفة تزداد، وحرمة الحريم تعظم، وأرى الأمر بالضد.** فأطلق سراح بعضهم. وأخذ جميع اقطاعات الملك الرحيم. وهرب كثير من الناس الى البساسيري ولزموه فكثر جمعه. فأمر طغرل بك بأخذ أموال الأتراك البغداديين، وأرسل إلى نور الدين دبيس يأمره بإبعاد البساسيري عنه، فسار البساسيري الى رحبة مالك بالشام وانضم الى حاكم مصر ـ المستنصر بالله العلوي ـ. وطال مقام السلطان طغرل بك ببغداد، وعم الخلق ضرر عسكره، وضاقت عليهم مساكنهم، فإن العساكر نزلوا فيها وغلبوهم على أقواتهم، وارتكبوا منهم كل محظور. **فما كان من الخليفة القائم بأمر الله إلاّ أن أمر وزيره رئيس الرؤساء بالكتابة إلى وزير السلطان طغرل بك ـ عميد الملك الكندري ـ يستحضره، فإذا حضر أبلغه ما نزل بالناس من الظلم والجور، ويعظه، ويذكره، فإن أزال ذلك وفعل ما أمر الله به. وإلاّ فليساعد الخليفة على الانتزاح عن بغداد ليبتعد بنفسه عن المنكرات.** فكتب رئيس الرؤساء إلى الكندري يستدعيه، فحضر، فأبلغه ما أمر به الخليفة. وخرج توقيع ـ رسالة ـ من الخليفة إلى السلطان طغرل بك فيه مواعظ فمضى الى السلطان وعرفه الحال. فاعتذر بكثرة العساكر وعجزه عن تهذيبهم وضبطهم. وأمر عميد الملك ان يبكر بالجواب الى رئيس الرؤساء ويعتذر بما ذكره، ويعلمه بالسمع والطاعة، وأخرج الجند من دور العامة، وعزم على الرحيل عن بغداد. ولم يلبث ان غادر بغداد ومعه خزائن السلاح والمنجنيقات. وكان مقامه ببغداد ثلاثة عشر شهراً لم يقابل خلالها الخليفة. وسار إلى نصيبين، واستقر بها. ومضى عام وشعر الخليفة بأن نشاط ـ البساسيري ـ وأنصار حاكم قصر المستنصر بالله العلوي يتزايدون قوة. فأرسل رئيس

الرؤساء الى السلطان طغرل بك ـ فقابله عند القفص، وأبلغه سلام الخليفة واستيحاشه، فقبل طغرل بك الأرض، وقدم إليه رئيس الرؤساء جاماً من ذهب فيه جواهر، وألبسه فرجية جاءت معه من عند الخليفة، ووضع العمامة على مخدمته. ثم سار الى بغداد، ولم يمكن أحداً من النزول في دور الناس. وطلب طغرل بك الاجتماع بالخليفة، فأذن له. وجلس الخليفة جلوساً عاماً. وحضر كبار قادة طغرل بك وأعيان بغداد، وحضر طغرل بك في سفينة عبر النهر وأصحابه حوله في السفن، فلما خرج من السفينة أركب فرساً من خيول الخليفة. وحضر عند الخليفة الذي كان يجلس على سرير عال من الأرض نحو سبعة أذرع. وعليه بردة النبي ﷺ وبيده القضيب الخيزران، فقبل طغرل بك الأرض، وقبل يد الخليفة. وأجلس على كرسي. فقال الخليفة لرئيس الرؤساء: «**قل إن أمير المؤمنين شاكر لك سعيك، حامد لك فعلك، مستأنس لقربك. وقد ولاك جميع ما ولاه الله من بلاده ورد عليك مراعاة عباده، فاتق الله فيما ولاك، واعرف نعمته عليك في ذلك، واجتهد في نشر العدل وكف الظلم، وإصلاح الرعية**» فقبل طغرل بك الأرض مرة اخرى. وأمر الخليفة بافاضة الخلع عليه، فقام إلى موضع لبسها فيه، وعاد وقبل يد الخليفة، ووضعها على عينه. وخاطبه الخليفة بملك المشرق والمغرب. وأعطى العهد وخرج. وأرسل الى الخليفة خدمة كثيرة منها خمسين ألف دينار، وخمسين مملوكاً أتراكاً من أجود ما يكون، ومعهم خيولهم وسلاحهم إلى غير ذلك من الثياب وغيرها.

جابه الخليفة بعد ذلك مأزقاً صعباً، فقد اضطر طغرل بك للتوجه الى الري لقتال أخيه ـ إبراهيم ينال ـ الذي شق عليه عصا الطاعة، وأفاد البساسيري من ذلك فجمع جموعه وانحدر من موصل الى بغداد فدخلها ـ وهرب الخليفة وأهله من دار الخلافة التي تعرّضت للنهب والإحراق، وأقام البساسيري الخطبة في العراق كلها للمستنصر العلوي. وعاد المؤذنون يؤذنون بشعار العلويين (حي على خير العمل) بدلاً من (الصلاة خير من النوم). وتعرض الخليفة لمعاناة شديدة. حتى إذا ما فرغ طغرل بك من القضاء على التمرد. وقتل أخيه إبراهيم ينال ـ عاد بجيشه، ودخل بغداد، وأعاد الخليفة إلى دار الخلافة، واعتذر له عمّا نزل به بسبب انشغاله بالفتنة، ثم سار الى

الموصل، وحارب البساسيري وانتصر عليه وقتله، وقتل كثيراً من شيعته وأتباعه. وأمر بإعادة الأذان (بالصلاة خير من النوم). واستقر الأمر لطغرل بك - والأتراك السلاجقة - الذين لم يلبثوا حتى بسطوا سيطرتهم على معظم بلاد الشام (في عهد ألب أرسلان ابن أخ طغرل بك) والذي كانت له مع الروم أيام مشهورة - أهمها يوم ملازكرد -. وقد بقيت العلاقات بين السلاجقة وبين دار الخلافة على أفضل ما يجب ان تكون عليه العلاقة بين الحاكم والمحكوم. حيث كان كتاب الله وسنة رسوله أساس هذه العلاقة وقاعدتها.

٦ ـ القوة في خدمة المجتمع الإسلامي .

قد يكون العرض الذي تضمنته الفقرة السابقة ـ وهو واحد من نماذج كثيرة مشابهة كافياً لإبراز مجموعة من الحقائق المتعلقة بإدارة الحرب في العهد الموصوف بعهد الضعف. ولكن كيف يكون عهداً ضعيفاً ذلك العهد وهو يخضع أقوى مراكز القوى ؟ لقد انتصر البساسيري مرات عديدة على دار الخليفة ، وأخرج الخليفة عن داره ومستقر عزه . وبالرغم من ذلك فإنه لم يجرؤ على النيل من الخليفة أو قتله . وأعلن في العراق كله الخطبة للمستنصر العلوي بمصر . ورفع أذان (حي على خير العمل) في كافة مساجد العراق . لكنه لم يجرؤ على إبطال الدعاء للخليفة العباسي .

وجاء ـ طغرل بك ـ وقد دان له المشرق ، فقبل الأرض بين يدي الخليفة ، وقبل يده ، وامتثل لأمره يوم طلب إليه مغادرة بغداد رأفة بالسكان المواطنين ، ورحمة بهم . وقد تلخصت وصيته إليه بكلمة : « إقامة حدود الله ـ والامتثال لأوامره ونواهيه فيما يتعلق بالعلاقة مع المسلمين » .

قد يؤخذ موقف الخليفة ، وتهديده بالخروج من بغداد ، احتجاجاً على ظلم المسلمين على أنه موقف ضعيف ومتخاذل . فخروج الخليفة هو موقف سلبي ـ وفقاً لمعايير الأزمنة الحديثة ومقاييسها ، وربما في مقاييس الأزمنة القديمة أيضاً ، غير أنه من الخطأ الكبير ترجمة هذا الموقف بعيداً عن إطاريه الزمني والمكاني . فقد أخذ الخليفة على طغرل بك العهود والمواثيق بإقامة حدود الله قبل استدعائه ـ أو السماح له بدخول بغداد ـ وكان باستطاعة طغرل بك اقتحام بغداد بالقوة ودون استئذان ، وهو الذي امتلك أسباب القوة ودان له المشرق بالخضوع والطاعة . فلماذا يستأذن الخليفة في الدخول الى عاصمته ؟ ولماذا يلزم نفسه بالعهود والمواثيق ؟ هنا تكمن الإجابة .

لقد كانت العقود والمواثيق هي أسس العلاقة الدينية بين الحاكم والمحكوم . ولم يكن باستطاعة الحاكم أو المحكوم انتهاكها . فكانت كلمة الخليفة **أقوى من الجيوش ، وأقوى من السلطان** . وكان انتهاكها يعني منح الحرية للخليفة لممارسة دوره المضاد مع

قوى جمهور المسلمين، ومع مراكز القوى الأخرى. **ولم يكن طغرل بك على استعداد** لإغضاب الخليفة، وهو لم يجد من حريته في الحكم إلاّ بما أمر الله وهو (إقامة حدود الله). وكان خضوع الخليفة وطغرل بك لسلطان واحد هو سلطان الحق والعدل، وعندما عرف طغرل بك أن جنده قد تجاوزوا الحدود في علاقتهم مع المسلمين، أمر بخروجهم من بغداد. وإذن لم يكن الخليفة ضعيفاً، ولم تكن سلطته دينية منفصلة عن السلطة الدينوية، بل إنه ألقى بأعباء الحكم على من يأنس فيه القدرة على إقامة حدود الله، وبقي ممسكاً بموقعه المهيمن الذي يشرف منه على كل ما يحدث. وكان باستطاعته دائماً تقويم الاعوجاج، وتصحيح الانحراف، بل كان قادراً - رغم ضعف قوته العسكرية - على قلب الموقف ضد هذا الذي يملك مفاتيح القوة العسكرية. وقد فعل ذلك مرات من قبل.

لقد كانت قوة الخليفة مرتبطة بقدرته على الالتزام بحدود الله وإلزام رعيته بها. وكانت قوة مراكز القوى المختلفة بقدر إقامتها لحدود الله على أرض الله. ولعل أفضل ما يبرز هذه الحقيقة، رسالة جغري بك داود بن ميكائيل بن سلجوق - أخو السلطان طغرل بك - ووالد ألب أرسلان - وقد بلغه طغيان أخيه طغرل بك، فكتب إليه: «... بلغني إخرابك البلاد التي فتحتها وملكتها، وجلاء أهلها عنها، وهذا ما لا خفاء به في مخالفة أمر الله تعالى في عباده وبلاده. وأنت تعلم ما فيه من سوء السمعة وإيحاش الرعية. وقد علمت أننا لقينا اعداءنا ونحن في ثلاثين رجلاً وهم في ثلاثمائة فغلبناهم، وكنا في ثلاثمائة وهم في ثلاثة آلاف فغلبناهم. وكنّا في ثلاثة آلاف وهم في ثلاثين ألفاً فدفعناهم. وقاتلنا بالأمس شاه ملك وهو في اعداد كثيرة متوافرة فقهرناه وأخذنا مملكته بخوارزم. وهرب من بين أيدينا الى خمسمائة فرسخ من موضعه، فظفرنا به وأسرناه وقتلناه. واستولينا على ممالك خراسان وطبرستان وسجستان. وصرنا ملوكاً متبوعين بعد أن كنّا أصاغر تابعين. وما تقتضي نعم الله علينا أن نقابلها هذه المقابلة». وأجاب طغرل بك: «يا أخي أنت ملكت خراسان وهي بلاد عامرة فخربتها، ووجب عليك مع استقرار قدمك عمّارتها. وأنا وردت بلاداً خرّبها من تقدمني، واجتاحها من كان قبلي. فما أتمكن من عمارتها والأعداء محيطة بها، والضرورة تقود إلى طرقها

بالعساكر ولا يمكن دفع مضرتها عنها ».

لقد كان للجيوش الكثيفة ثقلها على السكان، ومعروف ان بناء كثير من المدن الإسلامية ـ مثل واسط وحتى بغداد ـ لم يتم إلاّ لإبعاد الجند عن الاحتكاك بالمسلمين ـ او المواطنين المدنيين ـ فالجيش هو لحمايتهم والدفاع عنهم وضمان أمنهم وحرّيتهم، وقد تحدث ظروف طارئة أو عابرة يحدث فيها طغيان أو فتنة تحدث اضطراباً في العلاقة بين الإنسان المسلم وبين قوات الخليفة أو سواها. غير أن هذا الاضطراب العارض لا بد له من التقويم وبسرعة، فالجيش يستمد قوته من المواطن وهذا المواطن يجد أمنه وحمايته في الجيش، ولم يكن المواطن المسلم ليفرط في حقّه إذا ما وجد انحرافاً بل كان يقاومه قدر استطاعته، فإذا ما انتصرت القوة على حقّه، قد يستكين على كره ـ ولو بصورة مؤقتة، غير أنه لا بد له من أن يجد الفرصة لتقويم الموقف لمصلحته ولإقامة حدود الله على أرض الله ـ ولهذا كان لا بد للقوة بدورها من استرضاء حق الإنسان المسلم والعمل له حتى تستقيم الأمور. وكان الخليفة هو الذي يراقب هذا التوازن في العلاقات. ويستمد قوته أولاً وآخراً من قوة الإنسان المسلم، ومن قوة الحق، وإذن فالقوة المهيمنة هي قوة الإسلام الذي كان يحكم العلاقات جميعاً. وينظّم أمور المسلمين لما فيه مصلحة الجميع، مصلحة أمير المؤمنين ومصلحة جند الله ومصلحة الإنسان المسلم الذي يعمل في مجتمعه لخير هذا المجتمع. وكانت مصلحة الجميع هي العمل لآخرتهم قبل العمل لدنياهم. وكان ظهور الصراعات هو أمر طبيعي ومتوقع ـ كما هو الأمر منذ عاش الإنسان على أرض الله، وطالما هو باق على هذه الأرض ـ والمهم في الأمر هو بقاء قيم المجتمع الإسلامي وفضائله هي السائدة وهي المهيمنة على السلوك والممارسات جميعاً.

وقد يكون من الخطأ الكبير على ضوء ما تقدم الأخذ بمقولات باتت شائعة ومعروفة مثل: اتهام الحكم العباسي بالضعف خلال العصر العباسي الثاني، أو القول بأنه لم يعد للخليفة سوى الدعاء على المنابر والبردة والقضيب. فهذه الرموز من شعائر الإسلام والإصرار على التمسك بها ما هو إلاّ البرهان على قوة هذه الرموز، وتساميها على كل قوة. ولم يكن الخليفة العباسي في يوم من الأيام حاكماً دينياً، ولا يمكن له أن

يكون كذلك طالما مارس حكمه باسم الإسلام. فالإسلام هو دين الدنيا والآخرة، وهو دين الدنيا باعتبارها المرحلة الخاطفة في حياة الإنسان للوصول الى الآخرة. غير ان خلفاء بني العباس، وقد أدركوا اتساع ممالك المسلمين، وعرفوا قوة الشعوب التي اعتنقت الإسلام، واندفعت لرفع راية الجهاد في سبيل الله، عملوا على التكيف مع التطورات المستجدة، وماذا يضيرهم ان يحكموا بصورة مباشرة أو غير مباشرة طالما ان هدفهم الأوحد هو دعم الإسلام والقضاء على الانحرافات، وضمان أمن الإنسان المسلم وحمايته، وتحقيق الاستقرار للمجتمع الإسلامي؟ وبدهي أن خلفاء بني العباس، لم يكونوا نسيجاً واحداً في قدراتهم القيادية وكفاءاتهم. وكذلك لم تكن الظروف المحيطة بكل واحد منهم مشابهة لظروف الآخرين. فالمجتمع الإسلامي خلال العصر العباسي قد تطور كثيراً، وشهد تغيرات مثيرة، وقد دفع بعض خلفاء بني العباس ثمن هذه التناقضات غالياً، من حياتهم، ومن وجودهم. وتمكن آخرون رغم كل العوائق من السيطرة على الأحداث، بل وسبقها وتوجيهها نحو مساراتها الصحيحة. وقد عصفت بالدولة العباسية العواصف الهوجاء العاتية، وصمدت بغداد وحدها، وحوصرت، وخرجت في كل مرة وهي محتفظة بمكانتها وهيبتها. فهل كان ذلك بحكمة الخلفاء وسداد رأيهم، أم كان بفضل مراكز القوى التي نذرت نفسها لخدمة خلفاء بني العباس أم أن ذلك كان بفضل الإنسان المسلم الذي بقي ثابتاً وسط العواصف الهوجاء؟. لقد ظهر من العرض السابق ان العاصفة الهوجاء قد اجتاحت كل بيت من بيوت المسلمين، فمنهم من ثبت، ومنهم مضى مع العاصفة الى حيث ألقت به في معسكر من المعسكرات المتصارعة. ولكن هذا الابتلاء قد انحسر في كل مرة لمصلحة الإسلام. وإذن فليس الفضل للخلفاء من بني العباس وفيهم القوي وفيهم الضعيف، وليس في مراكز القوى التي سار بعضها على النهج وسار بعضها ضدّه، وليس أيضاً في الإنسان المسلم الذي تعرض للابتلاء فصمد أو استسلم. وإنما كان الفضل دائماً للإسلام، الذي أخرج الناس من الظلمات الى النور، والذي بين لهم حدود الخير والحق وما في هذا الكون من تناقضات هي من طبيعة الوجود ذاته. كما في الليل والنهار والظلمة والنور وسائر الثنائيات المتناقضة.

يظهر من خلال ذلك انه ليس هناك ما هو أشد خطراً من أخذ ظاهرة من الظواهر ـ مثل قتل أحد الخلفاء أو حتى اكثر من خليفة ـ على أيدي الجند، وتعميم هذه الظاهرة على الحكم العباسي كله، باعتبارها ظاهرة تؤكد خضوع الخلافة للجند وتحكم هؤلاء بالخلافة. ويظهر من خلال ذلك أيضاً خطأ تقسيم العصر العباسي زمنياً، أو بحسب مجموعة معينة من ظواهره، فقد كان لكل فترة تطوراتها، وكان الحكم العباسي يسير مع هذه التطورات، وهي تطورات لا تخضع بحسب مقولات البحث العلمي لحدود زمنية أو مكانية معينة، وإنما هي نتيجة تفاعلات دينية واجتماعية واقتصادية وسكانية تمارس دورها مع عوامل خفية أخرى بصورة بطيئة لتأخذ شكلها العنيف والواضح خلال حقبة زمنية معينة، غير أن جذور تفاعلاتها قبل ذلك، ثم استطالاتها وتأثيراتها المباشرة وغير المباشرة على سواها من الأحداث تبقى مخفية وغير واضحة. وما يهم البحث هنا هو الاعتماد على الحقائق الواضحة، والمؤكدة، والتي تبرهن المرة بعد المرة على أن الحكم العباسي لم يتمكنِ من الصمود ولم ينجح في الاستمرار إلاّ بفضل اعتماده على الإسلام الذي نظّم علاقات المجتمع الإسلامي في دنياه من أجل آخرته. وتقود هذه الحقيقة إلى حقيقة أكثر أهمية، وهي أنه من الصعب على غير المسلم فهم هذه الديناميكية التي ميزت المجتمع الإسلامي عن غيره من المجتمعات. وهذه الديناميكية ـ أو القدرة المحرّضة والمحرّكة ـ بخصوصيتها المميزة لها، تجعل من الصعب استخدام المقاييس السائدة في مجتمع من المجتمعات وتطبيقها على المجتمع الإسلامي. ومثال ذلك ما سبق ذكره عندما عمل الجند على إعادة المقتدر إلى منصب الخلافة ثم اخذوا في القول: «إن لم يفعل المقتدر معنا ما نستحقه قاتلناه بما يستحق». أو «من يصعد الحمار إلى السطح يقدر ان يحطّه». وذلك للبرهان على ما وصلته مكانة الخليفة من انهيار. فقد يكون من طبيعة الأمور، وقد عرف الجند دورهم في إعادة أمير المؤمنين الى سدة الخلافة، أن يزهوا بقوتهم وقدرتهم. ولكن هل خضع الخليفة لهذه القوة أم اعتبر انهم كانوا الوسيلة، وأن القوة لله جميعاً، فعمل على تمزيق هؤلاء الذين أخذتهم العزّة بالإثم، معتمداً بعد الله على الإنسان المسلم في المجتمع الإسلامي والذي هو مركز الثقل ومركز التوازن، وأن هذه القوة إن لم تكن في خدمة الإنسان

المسلم فهي قوة خارج كفة ميزان القوى، ومن السهل تدميرها والقضاء عليها. وهذا ما فعله أمير المؤمنين المقتدر بالله. وهذا ما فعله سواه.

لقد تطور المذهب العسكري الإسلامي في العصر العباسي، نتيجة تطور الجيوش وزيادة أعدادها، وتنوع طرائقها القتالية. ولقد كان هذا التطور مواكباً لمجموعة من التطورات الاجتماعية والاقتصادية. فكان من طبيعة الأمور ان ينعكس ذلك أيضاً على تطور اسلوب القيادة. وعلاقة القيادة السياسية بالقيادة العسكرية - بحسب المفاهيم الحديثة.

إن ما سبق ذكره ينفي ويدحض ما يقال عن العصر العباسي من هيمنة الشعوبية. وإن ما سبق ذكره ينفي ويدحض ما يقال عن العصر العباسي من زوال المركزية وعن غياب الدولة. فالقضية لم تكن قضية هيمنة ترك او اكراد او ديالمة أو غز - سلاجقة - وسواهم. وإنما كانت قضية تثبيت دعائم المجتمع الإسلامي على النهج الصحيح. نهج كتاب الله وسنة رسوله - فقد تمزّق المجتمع الإسلامي تمزقاً مرعباً بظهور النزعات الطائفية، وتعاظم خطرها. وقيام دولة لها في مصر وظهور كيانات لها في - هجر حيث القرامطة - وفي سواها. وانقسم العرب بين مراكز القوى المتصارعة. وانقسم الأتراك بين مراكز القوى المتصارعة على نحو ما سبق ذكره، وتمزّق البربر في المغرب العربي - الإسلامي أيضاً. ووقفت الخلافة، ووقفت جماهير المسلمين وجلة جزعة لما نزل بها من البلاء والابتلاء. وإذا وقف بعض الترك مع الخلافة في حقبة معينة فقد وقف بعضهم ضدّها في حقبة أخرى. وهكذا لم تكن القضية هي قضية شعوبية - بالمعنى الدقيق والشائع في الأزمنة الحديثة -. ولم يكن الولاء دائماً للعصبية الجاهلية سواء عند العرب او عند الترك او عند البربر أو عند سواهم من الأمم التي أقبلت على الإسلام واعتنقته ديناً. وهذا لا ينفي بداهة كل أثر للشعوبية على نحو ما أظهرته حركة البرامكة في البداية والحركة القرمطية في النهاية. غير ان القضية في الأساس هي قضية صراع الإسلام ضد الانحراف عن النهج الصحيح. وقد خاض غمار هذا الصراع أقوام وأقوام، لم تكن عصبية الجاهلية هي المحرضة لهم بقدر ما كان العامل المحرّض هو تصحيح الانحرافات، والقضاء على البدع والضلالات. وقد صهر

هذا الصراع الأقوام جميعها، فبات من الصعب تمييز امة عن أخرى. وهنا قد يكون من السهل إلصاق الإدانات بالحكم العباسي الذي عجز عن معالجة المواقف المنحرفة بمثل ما حدث في عصر النبوة الأولى، أو في صدر الإسلام أو حتى في العهد الأموي وفي المائتي سنة الأولى من الحكم العباسي. ومرة أخرى: كم هو من السهل إلصاق الإدانات عندما يبتعد الحدث عن ظروفه الزمنية والمكانية؟ وكم هو من السهل أيضاً استخدام مقاييس شائعة لتقويم أبعاد أجسام غير شائعة - أو إنكار أبعاد هذه الأجسام غير الشائعة عن حسن نية أو سوء نية - من أجل تسهيل عملية القياس بالمقاييس الشائعة؟ فلقد وجد العصر العباسي ذاته أمام مواقف متجدّدة باستمرار - وكان لا بد من معالجة هذه المواقف بقلب الإنسان المؤمن وعقله - وقد فعل خلفاء بني العباس - معظمهم إن لم يكونوا كلهم - على التصدي لمعالجة المواقف وحققوا في ذلك نجاحات رائعة - بل مذهلة حقاً - عند تصور حجم تلك التحديات وثقلها. وكان دليلهم في ذلك واضحاً، وقد توافرت لديهم أيضاً تجربة الحكم الإسلامي السابقة، فكانت أفضل موجّه للتمسك بالنهج الصحيح. إذا كان الأمر كذلك، وهو كذلك وفقاً لما تؤكده كافة الشواهد المتوافرة، فما هو شكل تلك العلاقة: هل هي ملكية استبدادية؟ أم هي جمهورية ديموقراطية؟ أم هو نظام ملكي ديموقراطي - بمعنى ان الملك يملك ولا يحكم؟ أم هو نظام رئاسي يمارس الرئيس سلطاته في إطار من اللامركزية - أو الإدارة الذاتية؟ لو أخذ موقف المنصور من أبي مسلم الخراساني أو موقف الرشيد من البرامكة لظهر الحكم بشكل ملكي استبدادي. ولو أخذ موقف الرجلين من إدارة الحكم وقيادة الجيوش لظهر الحكم بشكل جمهوري ديموقراطي. ولو أخذ موقف الخلفاء عامة من إدارة الأقاليم لأخذ الحكم شكل النظام الرأسي - اللامركزي. ولو أخذت مواقف الخلفاء من مراكز القوى لظهر ان هذا الحكم شبيه بالملكي - الديموقراطي. وبالإمكان بعد ذلك تفسير كل موقف من المواقف بإسناده إلى شكل من أشكال الحكم. فما هو شكل هذا الحكم؟.

ليس المجال هنا هو مجال الدخول في فلسفة الحكم، وليس المجال هنا هو أيضاً إضفاء الأسماء الحديثة على شكل حكم يختلف بقيمه ومفاهيمه عن المجتمعات القديمة

والحديثة. ولقد اضطلع المستشرقون والمستغربون بمحاولات تفسير الحكم العباسي من خلال بعض الشواهد وتعميمهم، فوقعوا في تناقضات مثيرة، وما يهم البحث هنا هو التعرض للحكم من ناحيتي السياسة الإستراتيجية وإدارة الحرب. ولقد سبقت الإشارة الى أنه من الصعب إن لم يكن من المحال فهم هذه السياسة الإستراتيجية وإدراك طريقة إدارة الحرب بدون وضعها في إطارها الديني - الإسلامي. سواء من خلال هدف الحرب، أو من خلال قيادة الأعمال القتالية وإدارة الحرب. وبما ان للنهج الإسلامي استقلاليته وخصائصه المميّزة - في القديم كما في الحديث - لا شرقية ولا غربية - فإنه من الطبيعي ان يبقى هدف الحرب هو الأساس في تنظيم القوات المسلحة وفي إدارة الحرب، ممّا يعطي لهذا التنظيم ولإدارة الحرب تلك طابعها المميز. وقد يكون بالمستطاع تشبيه ما تطبقه الدولتان العظميان حالياً من ربط بين الفكر السياسي والفكر العسكري - وخاصة الإتحاد السوفييتي الذي يعتبر الاشتراكية هي الفكر الموجّه للفاعليات العسكرية-بما موجود لدى المجتمع الإسلامي من ربط بين العقيدة الدينية ومذهبها العسكري المشتق عنها. وعلى هذا فإن شمول الدولة العباسية لجميع أشكال الحكم المعروفة في الأزمنة الحديثة، واستيعابها جميعاً، لا يعني مزج أشكال هذا الحكم بشكل عشوائي - بقدر ما يعني تكامل نظام الحكم الإسلامي - في العصر العباسي كما في غيره - وبحيث يستطيع هذا الحكم الاستجابة لكل متطلبات المجتمع الإسلامي ولكافة متطلبات القيادة وإدارة الحرب في إطار الطاعة والجماعة والشورى وسوى ذلك من الاسس والقواعد التي حددها الإسلام لإدارة شؤون الناس في سلمهم وحربهم، في أمورهم الدينية كما في امورهم الدنيوية، في موقعهم مواطنين عاديين أو قادة للجيوش أو حكّاماً في قمة هرم الدولة.

قد يشعر الإنسان المسلم بالغصّة تمسك بحلقومه، وبالضيق يجثم على صدره، وهو يقرأ ما نزل بهذا الخليفة أو ذاك، عندما دهمه الجند، وطلبوا منه ما لا طاقة له بدفعه من المال وقد أفرغت خزائنه حتى لم يبق عليه إلاّ الجبة الخشنة يلبسها. وقد يشعر

الإنسان المسلم بالألم يعتصره وهو يطالع ما فعله قادة الأجناد بهذا الخليفة أو ذاك، فأنزلوا به سوء العذاب وقتلوه، ونصبوا مكانه. فكيف استقامت الأمور بعد مثل هذا الاضطراب الخطير؟ ولكن ألم يحاول أعداء الإسلام القضاء على الإسلام عندما عملوا على قتل الخليفة عثمان بن عفان رضوان الله عليه؟ ثم ألم يحاول المنحرفون تضييع الإسلام عندما حاولوا في مؤامرة ١٧ رمضان سنة ٤٠ للهجرة قتل قادة المسلمين وهي المؤامرة التي ذهب ضحيتها علي بن أبي طالب رضوان الله عليه؟ فهل انتقصت هذه المحاولات من قيمة خلفاء المسلمين؟ وهل انتقصت من قوة الإسلام؟ ثم ألم يتبع ذلك استشهاد عدد كبير من قادة المسلمين وامرائهم وحكّامهم ـ غيلة وغدراً ـ فهل انتقص ذلك من قوة الإسلام أم زاده ضراماً؟ لقد أطلق الخوارج شعار (لا حكم إلاّ لله) وهو شعار كما قال عنه علي بن أبي طالب رضوان الله عليه (كلمة حق أريد بها باطل). فالحكم لله. والمال مال الله والأرض لله يرثها عباده الصالحون. ولهذا لا غرابة إن أشرف خلفاء بني العباس مرات عديدة على الإفلاس ولكن الغريب ـ وفقاً للمقاييس الدنيوية ـ هو أنهم كانوا حتى وهم في مثل هذه الحال من الفقر والضيق، أشد قوة وأكثر بأساً، لإيمانهم بقوة يقينهم وعدالة نهجهم. وقد يكون من الصعب الافتراض بأن مثل هؤلاء الخلفاء كانوا قادرين على تغيير نهجهم لتجاوز الأزمة التي يجابهونها. فكانت الراية تنتقل من خليفة الى خليفة، ومن قائد الى قائد، ويحدث التطور ولكن في إطار النهج ذاته ودون أي خروج عليه.

قد يكون من السهل اتهام النظام المالي والإداري للخلفاء بالتخلّف ـ لاعتماده على منح قادة الجند الاقطاعات، ولمنحه امراء الأقاليم الضمانات للجباية ودعم بيت المال بالموارد. وذلك من خلال مقارنة نظام الإقطاع ونظام الضمان بما يطبق في الأزمنة الحديثة من نظم لجباية الضرائب ودعم خزانة الدولة. ولكن ألم يسهم نظام الإقطاع بإعمار الأراضي؟ ألم تتمكن أنظمة الإقطاع من تطوير الزراعة ـ وخير نموذج ما قام به الزنكيون في الأراضي ما بين الجزيرة وحلب؟. ثم ألم يعمل الخلفاء على تجريد قادة الجند من اقطاعاتهم عندما انحرفوا عن النهج الصحيح؟ هنا لا بد من القول بأن فشل النظام الاقتصادي والمالي في تأمين الموارد التي كان يحتاجها الجيش في بعض الفترات لم

يكن بسبب سوء هذا النظام وفشله. وإنما بسبب أخطاء الأشخاص أنفسهم. وهو ما يحدث في الأنظمة القديمة والحديثة على السواء. ولعل متابعة ما يحدث على مسرح العالم في الأزمنة الحديثة هو أفضل برهان على أن كل نظام يحتاج للتطور الدائم، وهو ما كان يحدث في العصر العباسي، حيث كان الغنى والفقر يتناوبان الهيمنة على بيت المال.

لا ـ الجبهة الداخلية والقدرة القتالية.

جرى في عرض البحث الإشارة الى تلك العلاقة الثابتة بين استقرار الجبهة الداخلية وقوتها وتماسكها، وبين توجيه القدرة القتالية للفتوح والأعمال على الجبهة الخارجية. ولهذا لم يكن غريباً ان يبدأ الخليفة أبو بكر الصدّيق رضوان الله عليه بحروب الردة قبل الانطلاق لعالم الفتوح. وظهرت هذه العلاقة بشكلها الأكثر وضوحاً أيام الفتنة الكبرى ـ وتكررت خلال العهد الأموي. غير أنها أخذت أبعادها الكاملة خلال العصر العباسي ـ وخاصة على جبهة الصراع مع الروم البيزنطيين ـ حيث كان الطرفان المتصارعان يتناوبان قيادة الأعمال القتالية وفقاً للظروف المحيطة بالجبهتين الداخلية والخارجية. ولقد اجتاحت أيام العصر العباسي مجموعة من الحروب الداخلية التي أسهمت بتعطيل العمل على الجبهة الخارجية. وكان أخطر ما في الأمر هو أن هذه الحروب الداخلية قد فتتت ومزّقت الروابط الاجتماعية حيث أخذت شكل حرب طائفية شملت كافة القوى على الساحة ـ بداية من جمهور المسلمين ونهاية بدار الخلافة ـ والشواهد أكثر من أن تحصى ـ إلا أنه بالمستطاع التوقف عند أبرزها. ففي سنة ٤٢٢ هـ = ١٠٣٠ م اجتاحت بغداد فتنة عمياء وقعت بين السنة والشيعة. «وكان سبب ذلك أن الملقّب بالمذكور أظهر العزم على الغزاة، واستأذن الخليفة في ذلك فأذن له. وكتب له منشوراً من دار الخلافة، وأعطي علماً، فاجتمع له لفيف كبير. فسار واجتاز بباب الشعير. وطاف الحراني وبين يديه الرجال بالسلاح فصاحوا بذكر أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وقالوا ـ هذا يوم معاوية ـ فتصدى لهم الشيعة أهل الكرخ، ورموهم، وثارت الفتنة، ونهبت دور اليهود لأنهم قيل عنهم أعانوا أهل الكرخ. فلمّا كان الغد اجتمع أهل السنة من الجانبين ومعهم كثير من الأتراك وقصدوا الكرخ، فأحرقوا وهدموا الأسواق. وأشرف أهل الكرخ على خطر عظيم، وانكر الخليفة ذلك إنكاراً شديداً، ونسب إليهم تخريق علامته التي مع الغزاة، فركب الوزير، فوقعت في صدره آجرة، فسقطت عمامته، وقتل من أهل الكرخ جماعة. وأحرق وخرب في هذه

الفتنة سوق العروس، وسوق الصفارين وسوق الأنماط وسوق الدقاقين.. ووقع القتال في اصقاع البلد من جانبيه. وأظهر الجند كراهة الوزير الشيعي ـ جلال الدولة ـ وأرادوا قطع خطبته، ففرّق فيهم مالاً وحلف لهم ـ بأنه لا علاقة له بما حدث ـ فسكنوا. ثم عاودوا الشكوى الى الخليفة منه، وطلبوا أن يأمر بقطع خطبته ـ الدعاء له ـ فلم يجبهم الخليفة الى ذلك. وامتنع جلال الدولة حينئذ عن الجلوس وضرب النوبة أوقات الصلوات، وانصرف الطبّالون لانقطاع الجاري لهم ـ الرواتب ـ واستمر ذلك ستة أشهر تقريباً، لم يضرب خلالها بوق ولا طبل، ولا أظهرت الزينة، وزاد الاختلاط، ثم حدثت بعد ذلك فتنة بين السنة والشيعة، وزاد الشر ودام شهرين. واعترض أهل البصرة قوماً من ـ قم ـ أرادوا زيارة مشهد علي والحسين عليهما السلام، فقتلوا منهم ثلاثة نفر، وامتنعت زيارة مشهد موسى بن جعفر».

يمكن بعدئذ القفز من فوق أحداث مشابهة تكرر وقوعها طوال عشرين سنة، حيث يمكن قراءة ما حدث سنة ٤٤٣ هـ = ١٠٥١ م: «تجدّدت الفتنة ببغداد في هذه السنة بين السنة والشيعة، وعظمت أضعاف ما كانت قديماً، فكان الاتفاق الذي حدث قبل سنة اتفاقاً غير مأمون الانتقاض لما في الصدور من الإحن. وكان سبب هذه الفتنة أن أهل الكرخ ـ الشيعة ـ شرعوا في عمل باب السماكين. بينما عمل أهل الغلائين في اكمال ما بقي من باب مسعود. ففرغ أهل الكرخ، وعملوا أبراجاً كتبوا عليها بالذهب (محمد وعلي خير البشر) وأنكر السنة ذلك، وادعوا أن المكتوب هو (محمد ـ وعلي خير البشر فمن رضي فقد شكر ومن أبى فقد كفر). وأنكر أهل الكرخ الزيادة، وقالوا: ما تجاوزنا ما جرت به عادتنا فيما نكتبه على مساجدنا. فأرسل الخليفة القائم بأمر الله نقيب العباسيين أبا تمام ونقيب العلويين عدنان بن الرضى لكشف الحال وإنهائه. فكتبا بتصديق قول الكرخيين. فأمر حينئذ الخليفة ونواب الملك الرحيم بكف القتال. فلم يقبلوا، وانتدب القاضي ابن المذهب والزهيري وغيرهما من الحنابلة أصحاب عبدالصمد، واتهموا بحمل العامة على الإغراق في الفتنة، فأمسك نواب الملك الرحيم عن كفّهم غيظاً من رئيس الرؤساء ـ رئيس الوزراء ـ لميله الى الحنابلة. ومنع هؤلاء السنة من حمل الماء من دجلة الى الكرخ ـ وكان نهر عيسى قد انفتح بثقه، فعظم

الأمر عليهم، وانتدب جماعة منهم وقصدوا دجلة وحملوا الماء الى الكرخ، وجعلوه في الظروف، وصبوا عليه ماء الورد، ونادوا: الماء للسبيل. فأغروا بهم السنة، وتشدد رئيس الرؤساء على الشيعة، فمحوا عبارة (خير البشر) وكتبوا (عليهما السلام) فقالت السنة: لا نرضى إلاّ بقلع الحجر الذي عليه محمد وعلي. وأن لا يؤذن بعبارة (حي على خير العمل). وامتنع الشيعة من ذلك، واستمر القتال شهراً، وقتل رجل هاشمي من السنة، فحمله أهله على نعش وطافوا به في الحربية وباب البصرة وسائر محال السنة، واستنفروا الناس للأخذ بثأره، ثم دفنوه عند أحمد بن حنبل وقد اجتمع معهم خلق كثير أضعاف ما تقدم.

فلما رجعوا من دفنه قصدوا مشهد باب التين، فأغلق بابه فنقبوا في سوره وتهددوا البواب، فخافهم وفتح الباب، فدخلوا ونهبوا ما في المشهد من قناديل ومحاريب ذهب وفضة وستور وغير ذلك، ونهبوا ما في الترب والدور، وأدركهم الليل فعادوا. فلما كان الغد كثر الجمع، فقصدوا المشهد وأحرقوا جميع الترب والأبراج، واحترق ضريح موسى وضريح ابن ابنه محمد بن علي، والجوار، والقبتان الساج اللتان عليهما واحترق ما يقابلها وما يجاورهما من قبور ملوك بني بويه - معز الدولة وجلال الدولة - ومن قبور الوزراء والرؤساء الشيعة - وقبر جعفر بن أبي جعفر المنصور، وقبر الأمين محمد بن الرشيد وقبر أمه زبيدة، وجرى من الأمر الفضيع ما لم يجر في الدنيا مثله. فلما كان الغد، عادوا وحفروا قبر موسى بن جعفر ومحمد بن علي لينقلوهما إلى مقبرة أحمد بن حنبل، فحال الهدم بينهم وبين معرفة القبر، فجاء الحفر إلى جانبه، وعلم نقيب العباسيين أبو تمام وغيره من الهاشميين والسنة بما يحدث فجاؤوا ومنعوا عن ذلك، وقصد أهل الكرخ الشيعة - إلى خان الفقهاء الأحناف فنهبوه وقتلوا مدرس الحنفية أبا سعيد السرخسي، وأحرقوا الخان ودور الفقهاء، وتعدت الفتنة الى الجانب الشرقي من بغداد، فاقتتل أهل باب الطاق وسوق بج والأساكفة وغيرهم. ولما انتهى خبر إحراق المشهد إلى نور الدولة دبيس بن مزيد، عظم عليه واشتدّ وبلغ منه كل مبلغ لأنه وأهل بيته وسائر أعماله كلّهم شيعة، فقطعت في أعماله - الجزيرة - خطبة الإمام القائم بأمر الله. فأرسلت إليه الرسائل في ذلك من دار الخلافة، وعوتب، فاعتذر بأن أهل بيته

شيعة، واتفقوا على ذلك، فلم يمكنه ان يشق عليهم. كما ان الخليفة لم يتمكن من كفّ السفهاء الذين فعلوا بالمشهد ما فعلوا. ثم ما لبث ان اعاد الخطبة ـ الدعاء ـ للخليفة العباسي إلى مثل ما كانت عليه».

هكذا استمرت الفتنة، ومضى عام، وجاء عام (سنة ٤٤٥ هـ) والاقتتال مستمر: «وزادت الفتنة بين أهل الكرخ وغيرهم من السنة، وعظم الشر، واختلط بالفريقين طوائف من الأتراك، فلما اشتد الأمر اجتمع القادة واتفقوا على الركوب الى المحال وفرض الأمن والإيقاع بأهل الشر والفساد، وأخذوا من الكرخ انساناً علوياً وقتلوه. فثار نساؤه، ونشرن شعورهن واستغثن فتبعهن العامة من أهل الكرخ. وجرى بينهم وبين القواد ومن معهم من العامة قتال شديد، وطرح الأتراك النار في أسواق الكرخ، فاحترق كثير منها، وألحقت بالأرض، وانتقل كثير من أهل الكرخ الى غيرها من المحال. وندم القواد على ما فعلوه، وانكر الإمام ـ الخليفة القائم بأمر الله ـ ذلك، وصلح الحال، وعاد الناس الى الكرخ بعد أن استقرت القاعدة بالديوان بكفّ الأتراك أيديهم عنهم».

قد تكون القراءات السابقة كافية لابراز الأسباب الكامنة وراء هذه الصراعات، لقد اختفى الحوار الفكري وحل محله الحوار بالسلاح. ولم تكن القضية هي قضية إقامة باب للكرخ، ولا قضية شعار يرفع، فقد عرف الإسلام بتسامحه، ولكن وخلال تلك الفترة حوصر أهل السنة في كل مكان وارتفع حكم الشيعة. ولم يبق للسنة إلاّ الخليفة الذي حوصر في بغداد ـ في دار الخلافة ـ ممّا أرغمه على تعيين نقيبين واحد للسنة، وثان للشيعة، وكان الشيعة عامة هم المسيطرين على مصدر القوة ـ المال ـ ولم يبق للخليفة رغم محاولاته اتخاذ مواقف الحكم من الصراعات الطائفية، إلاّ أن ينتصر لهؤلاء السنة الذين لم يبق لهم من ينصرهم. وقد يتطلب إيضاح هذه الحقيقة وتأكيدها استقراء بعض الشواهد الإضافية. لقد كان وزير الخليفة القائم بأمر الله ـ البساسيري ـ قادراً على ممارسة ضغوط من خلال السيطرة على رواتب الجند واستثارتهم. ونظراً لانتصار الأتراك السنة لمسلمي بغداد من السنة. فقد استطاع ـ البساسيري ـ استثارتهم والضغط عليهم من خلال الإمساك برواتبهم والامتناع من دفعها لهم، ممّا زاد من اضطراب

الموقف. وهو ما حدث سنة ٤٤٦ هـ = ١٠٥٤ م: « حيث وقعت فتنة الأتراك ببغداد ـ وكان سببها أنهم تخلّف لهم مبلغ كبير من رسومهم ـ رواتبهم ـ فطالبوا الوزير وألحوا عليه فاختفى في دار الخلافة، فحضر الأتراك بالديوان، وطالبوه، وشكوا ما يلقونه منه من المطال ـ المماطلة ـ بما لهم، فلم يجابوا إلى إظهاره، فعدلوا عن الشكوى منه الى الشكوى من ديوان الخليفة، وقالوا إن أرباب المعاملات قد سكنوا بالحريم، وأخذوا الأموال، وإذا طلبناهم بها يمتنعون بالمقام بالحريم، وانتصب الوزير والخليفة لمنعنا عنهم، وقد هلكنا. فتردد الخطاب منهم والجواب عنه، فقاموا نافرين. فلمّا كان الغد ظهر الخبر أنهم على عزم حصر دار الخلافة فانزعج الناس لذلك، واخفوا أموالهم. وحضر البساسيري دار الخلافة، وبحث عن وزير السنة الذي يتبع الملك الرحيم ـ فلم يعثر له على خبر، فبحث عنه في داره وفي دور من يتهم به، وكبست الدور فلم يظهروا له على خبر. وركب جماعة من الأتراك إلى دار الروم. فنهبوها، وأحرقوا البيع والقلايات. ونهبوا فيها دار أبي الحسن بن عبيد ـ وزير البساسيري ـ وقام أهل نهر المعلى وباب الأزج وغيرهما من المحال في منافذ الدروب لمنع الأتراك، وانخرق الأمر ـ ونهب الأتراك كل من ورد إلى بغداد. فغلت الأسعار وعدمت الأقوات. وأرسل إليهم الخليفة ينهاهم فلم ينتهوا، فأظهر أنه يريد الانتقال عن بغداد، فلم يزدجروا. كل ذلك والبساسيري مقيم بدار الخلافة. وجاء الوزير ـ السني ـ وقدم لهم من ماله وأثمان دوابه وغيرها. ولم يزالوا في ضبط وعسف، فعاد طمع الأكراد والأعراب أشد مما كان عليه من قبل، وعاودوا الغارة والنهب والقتل. فخربت البلاد وتفرّق أهلها. ـ وعظم انحلال أمر السلطنة وهذا من ضرر الخلاف ».

لقد كانت موارد دار الخلافة تعتمد على ما يردها من أقاليم المسلمين، فلمّا ظهر التشيع وصار الحكم في مصر للعلويين، ثم سيطروا على بلاد الشام وأخضعوها لحكمهم، وحاصروا دار الخلافة، أصبحت دار الخلافة محرومة من مواردها، وزاد الأمر سوءاً بتحكم وزراء الشيعة بالخليفة، فكانت تلك الصراعات تعبيراً عن الغضب الدفين ـ هذا فيما كانت بقية مراكز القوى تنعم بالترف والاستقرار وهو ما تصوره القراءة التاريخية التالية: « توفي نصر الدولة أحمد بن مروان الكردي سنة ٤٥٣ هـ = ١٠٦١ م. ولقبه

القادر بالله نصرالدولة، وكان عمره نيفاً وثمانين سنة، وإمارته اثنتين وخمسين سنة. واستولى على الأمور في ديار بكر - استيلاء تاماً، وعمر الثغور، وضبطها، وتنعّم تنعماً لم يسمع بمثله عن أحد من أهل زمانه، وملك من الجواري المغنيات ما اشترى بعضهن بخمسة آلاف دينار وأكثر من ذلك. وملك خمسمائة سرية، سوى توابعهن، وخمسمائة خادم. وكان في مجلسه من الآلات ما تزيد قيمته على مائتي ألف دينار. وتزوج من بنات الملوك جملة. وأرسل طبّاخين إلى الديار المصرية، وعزم على إرسالهم جملة وافرة حتى تعلموا الطبخ من هناك. وأرسل الى السلطان - طغرل بك - هدايا عظيمة من جملتها الحبل الياقوت الذي كان لبني بويه - اشتراه من الملك العزيز أبي منصور بن جلال الدولة، وأرسل معه مائة ألف دينار سوى ذلك، ووزر له أبو القاسم بن المغربي. وفخر الدولة بن جهير. ورخصت الأسعار في أيامه، وتظاهر الناس بالأموال، ووفد إليه الشعراء، وأقام عنده العلماء والزهاد، وبلغه أن الطيور في الشتاء تخرج من الجبال إلى القرى فتصاد. فأمر أن يطرح لها الحب من الاهراء التي كانت له. فكانت في ضيافته طول عمره».

في وسط تلك الظلمة أضاءت دار الخلافة ببغداد بضياء جاء من الشرق، فقد تقدّم طغرل بك من بغداد. وكان أول ما فعله (سنة ٤٤٧ هـ = ١٠٥٥ م) أن أمر أهل الكرخ: «أن يؤذنوا في مساجدهم سحراً - الصلاة خير من النوم». وفي السنة التالية، أصدر الخليفة أمره بأن يؤذّن بالكرخ والمشهد وغيرها: (الصلاة خير من النوم) وأن يتركوا (حي على خير العمل). ففعلوا ما أمرهم به خوف السلطنة وقوتها.

لم تكن الفتن بين السنة والشيعة هي الفتن الوحيدة. فقد أفسحت هذه الفتن المجال الرحب لظهور فتن بين السنة ذاتهم. وفي هذا العام ذاته (٤٤٧ هـ = ١٠٥٥ م) وقعت فتنة بين الفقهاء الشافعية والحنابلة ببغداد، حيث عمل مقدّم الحنابلة أبو علي بن الفراء، وابن التميمي، ومعهما كثير من العامة، على إنكار الجهر (ببسم الله الرحمن الرحيم) ومنعوا من الترجيع في الأذان والقنوت في الفجر، وساروا الى ديوان الخليفة فلم يتم اتخاذ قرار بهذا الشأن. وجاء الحنابلة الى مسجد بباب الشعير، فنهوا إمامه عن الجهر بالبسملة، فأخرج مصحفاً، وقال أزيلوها من المصحف حتى لا أتلوها. وحدث مثل

ذلك سنة ٥٤٧ هـ = ١٠٦٥ م. وقد أوقد الفتنة في هذه المرة، الشريف أبو القاسم البكري المغربي الواعظ ـ وكان أشعري المذهب ـ وكان قد قصد نظام الملك فشجّع الشريف ابا القاسم وسيّره الى بغداد، وأجرى عليه الجراية ـ الراتب ـ فوعظ بالمدرسة النظامية، وكان يذكر الحنابلة ويعيبهم ويقول: (وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا) والله ما كفر أحمد ولكن أصحابه كفروا. ثم إنه قصد يوماً دار قاضي القضاة أبي عبدالله الدامغاني، فجرى بين بعض أصحابه وبين قوم من الحنابلة مشاجرة أدّت الى الفتنة. وكثر جمعه، فهاجم دور بني الفراء وأخذ كتبهم ـ كتب الحنابلة ـ وأخذ منها كتاب ـ الصفات ـ لأبي يعلى، فكان يقرأ بين يديه وهو جالس على الكرسي للوعظ، فيشنع به عليهم. وجرى له معهم خصومات وفتن.

لقد رافق ذلك كلّه ظهور فساد عام، فقد اضطرب حبل الأمن، وساد الخوف على الممتلكات والأموال. ولم تعد الطرق مأمونة، ونشط قطاع الطرق وسواهم. وقد تكون هذه الظواهر متوقعة في مجتمع مزقته الصراعات الطائفية.

ليس من الضروري بعد ذلك البحث فيما إذا كانت تلك الحروب الداخلية هي السبب في الانصراف عن الحروب الخارجية، أو أن عدم ممارسة الحروب الخارجية قد أدى إلى تفجر الحروب الداخلية. فلكل نظرية أنصارها ومؤيدوها والذين يمتلكون البراهين من التجربة التاريخية ذاتها للبرهان على صحة كل طرف من طرفي المعادلة. والمهم في الأمر هو أن هناك ثمة علاقة ثابتة بين الحروب الداخلية والحروب الخارجية، وأن كل نوع من أنواع هذه الحروب يتعايش على حساب الحروب الأخرى. ومعروف أيضاً ان الحروب الداخلية تستنزف القدرة الكامنة في الأمة وتفتتها وتضعفها بأكثر مما تضعفها الحروب الخارجية ـ ولهذا لم يكن غريباً على سبيل المثال أن ترفع الثورة الفرنسية مبدأ (القضاء على العدو الداخلي قبل مجابهة العدو الخارجي) باعتبار أن هذا العدو هو الأكثر شراً والأشد خطراً. وليس هذا المبدأ إلاّ مصداقاً لما فعله أمير المؤمنين أبو بكر الصدّيق قبل ذلك بأكثر من ألف عام عندما وجّه كل الجهود للقضاء على المرتدين قبل إطلاق جيوش الفتح. كما أن الحروب الخارجية كثيراً ـ وليس دائماً ـ تسهم في القضاء على الخلافات والتناقضات الداخلية. ولقد يكون من غير المهم

بعد ذلك التوقّف عند أسباب تلك الحروب الداخلية وعواملها، فالتناقضات الداخلية موجودة في كل مجتمع، في القديم كما في الحديث، بل ربّما كانت التناقضات في المجتمعات الحديثة أشد عمقاً وأكثر اتساعاً ممّا كانت عليه في المجتمعات القديمة. غير أن الوسائل المتوافرة في تنظيم المجتمعات الحديثة باتت قادرة على التعامل مع التناقضات بكفاءة أكبر وبسرعة أكثر. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فكلما تزايدت قوة المجتمع - وثراءه وقدرته العسكرية وتنظيمه - كلّما كان أكثر قدرة على استيعاب التناقضات والتعامل معها، وكلّما ضعفت هذه العوامل، كلّما توافر المجال لتفجير الحروب الداخلية. غير أن هناك قضية أساسية طرحت ذاتها بقوة منذ أيام العهد الأموي وتزايدت وضوحاً في العصر العباسي، وهي أن الشعوب التي دخلت في الإسلام تباعاً لم تتمكن بعد أن أصبحت هي مراكز القوى في الدولة، أن تفهم الإسلام كما كان يفهمه السلف، ممّا أدى بالتالي إلى زيادة حدّة التناقضات، وكذلك، فإن وجود التناقض بين المذاهب قد أفسح المجال الرحب لاستثمار هذه التناقضات وتوجيهها ضد مبادىء الإسلام ذاته. فكان حدوث الحروب الداخلية أمراً ينسجم وطبيعة مجريات الأمور.

لقد كان المجتمع الإسلامي في العصر العباسي - وربما أكثر من أي عصر سبقه أو جاء بعده - يضجّ بالحركة والصخب، أقوام تسير وراء الفتنة العمياء والضلالة الجهلاء، وأمم تنصرف للحروب الداخلية بحثاً وراء مثل أعلى. أو وراء مكسب مادي، وأمم لا همّ لها إلاّ الجهاد في سبيل الله على الجبهات الخارجية. وكانت هذه كلها تسير متوازية في وقت واحد. ويمكن تصور تلك القدرة المتفجرة لو توجّهت لعالم الفتوح، على نحو ما كان عليه الموقف أيام الأمويين. وليس بالمستطاع على كل حال الذهاب في التصورات بعيداً، إذ أن التصورات والافتراضات والأمور النظرية تتناقض مع موضوعية البحث التاريخي، فليس على الباحث إلاّ أن يذكر الأحداث ويستخلص منها عبرها ودروسها ونتائجها. وتؤكد الحقيقة والموضوعية أن تلك الحروب الداخلية قد استنزفت كثيراً من قدرة الشعوب الإسلامية. وقد يقف الباحث ذاهلاً عندما ينظر اليوم في أسباب تلك الحروب. فهل من أجل جملة (حي على خير العمل) بدلاً من

(حي على الفلاح) تشنّ الحرب؟ ولكن كل ذهول يزول ويتبدد عند الذهاب الى ما وراء الشعارات المرفوعة، ذلك أن الانحراف البسيط في بداية الأمر قد وصل الى ابتعاد كبير عن الإسلام عندما أوغل المنحرفون في مسيرهم. فكانوا كل يوم يبتعدون أكثر فأكثر عن روح الإسلام ونهجه. وعلى هذا لم تكن القضية قضية تعصّب أعمى أو تزمّت طائش، وإنما كانت القضية قضية وعي وإدراك لخطورة ذلك الانحراف، وما ستؤدي نتائجه الى انحراف بالإسلام ذاته. وعلى هذا فقد كانت الصراعات الداخلية، وكما سبق ذكره هي نوع من حروب الردة، بين الإسلام والمسلمين وبين من أرادوا الانحراف بالإسلام والمسلمين عن النهج القويم. نهج كتاب الله وسنة رسوله. وهو الصراع الذي سيبقى ما بقي للإسلام ذكر، وما بقي للتوحيد وجوده على أرض الله.

لقد كان لضعف دار الخلافة في فترة معينة، دوره الكبير في تفجّر الصراعات الداخلية خلال تلك الفترة. وقد يكون من المثير متابعة تلك المؤامرات التي كان يحيطها النقيبان ـ نقيب السنة ونقيب الشيعة ـ في الخفاء، حيث كان يعتمد النقيبان على ما هو متوافر لهما من الوسائل المتاحة، وكان الشارع الإسلامي هو مجال الصراع، وكان لدور بقية مراكز القوى دورها في ذلك الصراع الخفي ـ مما يذكر بما كان يسمى ـ مؤامرات البلاط ـ في دول العالم الغربي طوال العصور الوسطى. ومن الجدير بالذكر ان هذه المؤامرات قد توقفت تماماً، وانتهى الصراع على الجبهة الداخلية، عندما وصل السلاجقة ـ طغرل بك ـ إلى بغداد. وأصبح باستطاعة الخليفة أن يصدر أمراً بسيطاً لتقويم كل اعوجاج ومقاومة كل انحراف. ويظهر من خلال ذلك كله أنه قد يكون من التجني على الحقيقة التاريخية، ومن الافتراء عليها، ومن الظلم لها، تحميل تلك الحروب تفسيرات أو تأويلات لم تكن تمتلكها أصلاً، أو محاولة استخدامها لتشويه الإسلام، إذ انها لم تكن إلاّ تعبيراً عن مرحلة معينة أوجدتها عوامل واضحة.

٨ ـ الحروب النظامية والحروب الثورية.

لقد سارت الحروب النظامية والحروب الثورية ـ بحسب التسميات الحديثة ـ جنباً إلى جانب. وتطورت الحروب على الجبهتين الداخلية والخارجية ـ بحسب التسميات الحديثة أيضاً في آن واحد. وكان هناك ثمة تشابه وتماثل في هذه الحروب، وهذا التشابه نابع من وحدة الهدف بالنسبة للمسلمين. فالهدف هو إعلاء كلمة الله حتى تكون هي العليا على أرض الله. ولقد حاول أعداء المسلمين على الجبهتين الداخلية والخارجية محاكاة المسلمين، سواء في الهدف أو الوسائل، وهكذا كان حوار الإرادات المتصارعة محكوماً بعوامل واحدة مما أسهم بذلك الاتصال المحكم بين أنواع هذه الحروب جميعاً.

وتمثل الحروب مع الزنج ثم مع القرامطة النموذج الأفضل لذلك الاتصال والتشابه، فقد كانت قوات أمير المؤمنين ـ الخليفة العباسي ـ هي قوات نظامية، إلاّ أنها خاضت معاركها بمفاهيم الحروب الثورية وأساليبها، وكانت قوات ثورة الزنج، وقوات حركة القرامطة هي قوات ثورية ـ إلاّ أنها خاضت معاركها في إطار مفاهيم الحروب الثورية وأساليبها. وكذلك فقد كان هناك ثمة تشابه في المفاهيم والأساليب على جبهتي الروم ـ البيزنطيين، والهند ـ ومن المحتمل القول ان التشابه في الوسائط القتالية المستخدمة ـ السيف والرمح والنبال والمجانيق الخ ـ هو الذي خلق ذلك التشابه. وهذا جانب من الحقيقة، إلاّ أن الجانب الاكثر أهمية والأكبر أثراً هو فكر الإنسان الموجّه للصراع، فقد أظهر استعراض الاحداث والوقائع القتالية مدى الابداع الرائع في تطبيق مبادىء الحرب ـ المباغتة والمبادأة وأمن القوات والتأمين الإداري الخ... ـ وهكذا ورغم تشابه الوسائل، فقد كان كل طرف يحاول استخدام الوسائل المتوافرة بكفاءة عالية وإبداع مثير ـ. ويؤكد ذلك ان التشابه والتماثل لم يكن نتيجة تشابه الوسائط القتالية بقدر ما كان نتيجة لاستنفار كل مواهب الخيال والعقل لاستخدام تلك الوسائط بطريقة ناجعة للوصول الى هدف الحرب وهو تحقيق النصر الحاسم.

هنا لا بد من العودة الى البدايات الأولى لظهور فن الحرب الإسلامي، سواء في عهد النبوة، أو في عهود الخلفاء الراشدين، حيث الفتوحات العظمى ـ والتي اكتملت في العهد الأموي. فقد تشكل فن الحرب الإسلامي وضمَّ شكلي الحرب معاً: حرب القوات النظامية ـ الأجناد ـ وحرب القوات الثورية التي تعتمد على عمل المفارز والوحدات الصغرى. وتابع فن الحرب تطوره ضمن هذا الإطار ذاته حتى أخذ في العصر العباسي أبعاده الواضحة سواء عند العمل على الجبهات الخارجية أو عند العمل على الجبهة الداخلية ـ أي ضد الحروب الثورية ـ. ولهذا فقد كان لقوات أمير المؤمنين تفوقها في مجالين: الشرعية والقوى المقاتلة ـ هذا في حال امتلاك الأطراف المتصارعة لكفاءة متعادلة في مجال إدارة الحرب وقيادة الأعمال القتالية ـ.

وفي الواقع، فقد تميز قادة الحروب الثورية عامة بكفاءة قيادية عالية برزت من خلال تنظيم شبكات الاستطلاع والجاسوسية، ومن خلال التحصين الهندسي للأرض، علاوة على تلك الكفاءة التي تجلّت في قيادة الأعمال القتالية ذاتها.

لقد ظهر من خلال استعراض الأعمال القتالية لثورة الزنج والقرامطة أن قادة هذه الثورات تمكنوا من نشر شبكة دقيقة من الجواسيس وصلت حتى دار الخلافة وأحاطت بكافة تحركات القوات، وبالمقابل كانت شبكة دار الخلافة تحيط بكل مكان، ولهذا كان كل طرف يعرف عن يقين قوة خصمه وقدرتها معرفة دقيقة. وكانت هذه المعرفة عاملاً مساعداً لإدارة الحرب، غير أنها كانت في الوقت ذاته عاملاً معيقاً في وجه الحسم. إذ كان كل طرف يستطيع استباق الأحداث وتجنّب المآزق الحرجة. ولم يكن من السهل في الحالات كلها خداع الخصم أو تضليله ولهذا بقي عامل الحسم معلقاً لفترة طويلة.

كانت دراسة الأرض والإفادة من موانعها وعوائقها، وتنظيمها تنظيماً هندسياً عاملاً هاماً في جملة عوامل نجاح الأعمال الثورية. وقد ظهر ذلك واضحاً في ثورة الزنج، كما تكرر ذلك في الحرب مع القرامطة. ويظهر ذلك مدى التطور الفكري الذي وصلته قيادات الحركات الثورية، ومدى ما توافر لها من الكفاءة.

تشكل هذه الحركات الثورية بعد ذلك نموذجاً رائعاً لدراسة أساليب الحرب الثورية. فقد كان قادة هذه الحركات يحرصون كل الحرص على تجنّب الصدام مع قوات متفوقة، ويقتصرون في أعمالهم القتالية على هجمات محدودة ومباغتة، فكانت انتصاراتهم الصغرى والمتتالية تساعدهم على تعميق جذورهم وزيادة اتساع مجال عملهم ـ الجغرافي ـ. وكانوا يعتمدون على العنف والإرهاب من جهة وعلى الإغراءات المادية من جهة ثانية لاكتساب الانصار والمؤيدين، حتى إذا ما وصلت الثورة الى درجة كافية من القوة لم تتردد في توجيه ضرباتها للقوات النظامية، مستفيدة من رصيدها المعنوي الهائل لتدمير القوات المعادية. ولهذا لم يكن غريباً أن تتمزق القوات النظامية المتفوقة بالقوى والوسائط لمجرد اصطدامها بقوات الثورة، أو مجابهتها. ولكن، ومع مرور الوقت، تكتسب القوات النظامية ـ إذا ما توافرت لها قيادات ذات كفاءة عالية ـ القدرة على مجابهة قوات الثورة. وتبدأ عندها مرحلة التوازن بين قوات الثورة والقوات المعادية لها. وبذلك تنتقل المبادأة الى أيدي القوات النظامية، ويبدأ التحول في غير مصلحة الثورة. ويتم تجريد قواة الثورة من رصيدها المعنوي. حيث تستفيد القوات النظامية من (هالة الشرعية) لتمزّق (هالة الرعب) التي تنشرها الثورة وتستثمرها. وهذا مّما يؤدي الى دفع الثورة الى المزيد من التطرف في محاولة للتشبث بمواقعها المفقودة. ولكن ذلك يؤدي بالثورة الى الوقوع في متناقضاتها، فتبدأ بالتحلل والتفسّخ من الداخل. وتفقد قدرتها على التطور والاستمرار، رغم امتلاكها لقوات وموارد تزيد كثيراً على تلك التي كانت تمتلكها عند انطلاقتها الأولى. ويمارس العامل المعنوي دوره الحاسم في هذا المضمار. إذ يتبين لقوات الثورة مدى العزلة التي نزلت بها ـ والناتجة بصورة طبيعية عن ممارساتها الإرهابية والتي كثيراً ما تكون قد وجّهت توجيهاً خاطئاً، بحيث تقلب الأنصار الى خصوم والمحايدين الى أعداء حقيقيين، وبدهي ألاّ تستطيع الثورة التطور أو الاستمرار إلاّ من خلال ما تلقاه من دعم الجماهير لها. وقد ظهر أن القيادات النظامية ـ التي تتمتع بالشرعية ـ قد عملت على الاتجاه المضاد تماماً، حيث حرصت باستمرار على حماية الحياديين وتحييد الأنصار، وإفساح المجال لقوات الثورة ـ للتوبة ـ فجردت بذلك الثورة من ذريعتها، وحجة

وجودها. وهذا مما يبرز دور العمل الفكري والنفسي وأهميته في التعامل مع قوات الثورة، وإظهارها على صورتها الحقيقية بأنها حركة ضد جمهور المسلمين، في فكرها وفي ممارساتها. ويظهر من ذلك أن العمل ضد الحركات الثورية هو عمل فكري بالدرجة الأولى، هدفه تجريد الثورة من حجة وجودها، وفي الوقت ذاته تثبيت القناعة في وسط القوات النظامية ـ الشرعية ـ بعدالة قضيتها. وإنها تحارب عدواً منحرفاً عن القيم والفضائل التي جاء بها الإسلام. أما بالنسبة للعمل ضد الثورة فلا بد من ملاحظة عامل هام وهو السرعة في العمل ضدها، وبذل كل جهد مستطاع لخنقها وهي في مهدها. ولقد تحركت قوات أمير المؤمنين في الصدر العباسي الأول بسرعة كبيرة مما ساعدها على تطويق الثورات بسرعة ولكن، ومع مرور الزمن، وبسبب مجموعة كبيرة من العوامل المتشابكة، بدأ هذا التحرك مسارات متباطئة مما ساعد ثورة الزنج على الاستمرار لبضع سنين. ومما ساعد القرامطة على البقاء لعدد من عقود السنين. ويظهر ذلك مدى الحاجة لقوات جاهزة دائماً من أجل التعامل مع الحركات الثورية. ليس ذلك فحسب بل لعله من الأفضل سبق الأحداث بكشف رؤوس الفتنة وقادة الثورة قبل ان ينتقلوا الى مرحلة الصراع المسلح.

هنا لا بد من القول بأن المجتمع الإسلامي بحكم تكوينه المحارب، وبفضل ممارسته لنجهاد. قد ضمن توافر العناصر المقاتلة على نطاق واسع، كما ضمن توافر الخبرات القتالية على كافة المستويات. ولهذا لم يكن غريباً أن تشمل ساحات الصراع اعداداً ضخمة من المقاتلين الذين يخوضون صراعاتهم لأهداف شتى. ولما كان الهدف المحرّك للثورة هو هدف ديني ـ عقائدي أو مذهبي ـ في أساسه. فقد كان من طبيعة الأمور أن تأخذ الحرب طابع العنف والقسوة ـ لاسيما في المراحل الاولى ـ إلى أن يتحول هذا العنف الى صفة ملازمة للثورة، وليتحول بعد ذلك إلى سلاح مضاد للثورة ذاتها.

لقد بات معروفاً في الأزمنة الحديثة أن الشكل الأمثل للحرب هو تحقيق الاقتران بين الحروب الثورية والحروب النظامية سواء في الهجوم أو في الدفاع، فبينما تشنّ قوات الأنصار والقوات المنظّمة من العصابات أعمالها على مؤخرات قوات العدو، لضرب خطوط مواصلاته ومهاجمة مصادر إمداده وتموينه ونصب الكمائن لإعاقة تحركاته،

تقوم القوات النظامية بتوجيه عملياتها والعدو في حالة شلل أو ارتباك من ضربات القوات الثورية على مؤخراته. ولقد برهن هذا الأسلوب فاعليته الكبرى خلال الحرب العالمية الثانية على الجبهتين الشرقية والغربية، وخلال الحروب الثورية التي أعقبت ذلك (الحرب الكورية والحرب الڤيتنامية والحرب الجزائريـة). فقـد استطـاعـت الحروب الثورية استنزاف القوات الالمانية في أوروبا ـ فرنسا وبلجيكا وهولاندا ـ وفي البلقان ـ يوغوسلافيا خاصة ـ وكذلك على جبهة الشرق. حيث عملت قيادات الحلفاء على تنظيم المقاومة السرية على أعلى المستويات. ولقد تم ربط مخطط العمليات السرية (المقاومة) بمخطط عمل القوات النظامية، ممّا أدى الى توفير كبير في جهد القوات وفي الخسائر التي كانت ستتعرض لها قوات الحلفاء لو اصطدمت بقوات المانيا النازية. أليس مثيراً بعد ذلك ان يكون العرب المسلمون هم أول من طبق هذه السياسة الإستراتيجية قبل أربعة عشر قرناً. ثم طوّرها المسلمون عبر حروبهم وصراعاتهم المتتالية؟.

ولقد بات معروفاً أيضاً في الأزمنة الحديثة أهمية الاقتران بين عمل القوات النظامية على الجبهة الخارجية وبين عمل القوات الثورية على الجبهة الداخلية للعدو. بحيث تـؤدي الأعمال الثورية الى ارباك خطط العدو وشل قواته ووضعها في موقف يحرمها من حرية العمل العسكري. وبذلك خرجت روسيا القيصرية من الحرب العالمية الأولى، وبذلك انهارت الدولة العثمانية بقيام الثورة العربية الكبرى. وبذلك أيضاً انهارت المانيا القيصرية في الحرب العالمية الاولى. وكذلك انهارت ايطاليا في الحرب العالمية الثانية عندما اجتاحتها الثورة الداخلية. ولقد اعتمدت هذه الثورات ومثيلاتها على اساليب الحرب النفسية، وعلى تكوين تنظيمات ثورية في بلاد العدو. أليس غريباً بعد ذلك أن تتعرض الدولة العباسية لهذين النوعين من الحروب، وبالرغم من ذلك، فإنها صمدت للتحديات وقاومت أعداء الداخل وأعداء الخارج في وقت واحد؟ وهل بالمستطاع وصف الدولة التي نجحت في تجاوز محنتها والخروج منتصرة بالضعف او اتهامها بالتخاذل؟ من المحتمل هنا القول بأن اعداء الدولة الإسلامية ـ العباسية ـ لم يكونوا يمتلكون القوة الكافية لا على الجبهة الداخلية ولا على الجبهة الخارجية للإجهاز على الدولة العباسية. أو أن هؤلاء الأعداء لم يكونوا يمتلكون الخبرة الكافية لتنسيق العمل

على الجبهتين الداخلية والخارجية في وقت واحد. وقد تكون مثل هذه الحجج او الذرائع صالحة عند مناقشة تطورات الحروب في الأزمنة الحديثة، وعلى ضوء ما وصل إليه فن الحرب من التطور. ولكن طرح مثل هذه الحجج والذرائع لا يعتبر مقياساً سليماً عند تطبيقه على حروب العصر العباسي. حيث كانت الأطراف المتصارعة تمتلك جميعها خبرة قتالية متعادلة، وتمتلك كفاءة قيادية متشابهة، وإذن فليس هناك إلاّ تعليل واحد لانتصار قوات الخلافة العباسية وهو تفوق القيادة العباسية في مجال فن الحرب وفي إدارة الحرب سواء على مستوى السياسة الإستراتيجية - أو السياسة العليا - أو على مستوى قيادة الأعمال القتالية وإدارة الحرب. وهذا بدوره برهان على ما وصل إليه فن الحرب من تطور وتقدّم في العصر العباسي. بحيث بات هذا الفن يرسل بظلاله المتقدمة لتصل إلى الأزمنة الحديثة، بحيث يظهر ذلك التشابه المبدع بين ما وصل إليه فن الحرب في تلك الحقبة، وما وصل إليه في الأزمنة الحديثة.

لقد بات لكل من نوعي الحرب: الحرب النظامية والحرب الثورية، أساليبه وطرائقه وقواعده، ويخضع كل من النوعين للأبحاث الدقيقة والدراسات المستفيضة، حتى ليظهر لباحث اليوم أن هذين النوعين هما من ابداع الأزمنة الحديثة ومن مستجداتها ومستحدثاتها. ولهذا قد يبدو مثيراً للغاية عندما يطالع الباحث في بطون التاريخ العربي - الإسلامي اسس هذه الأساليب وطرائقها وقواعدها بشكل واضح جداً في تجارب حرب العصر العباسي - خاصة -. وهذه بدورها ليست ابداعاً عباسياً، وإنما هي مما حمله المذهب العسكري الإسلامي منذ ظهوره، ومنذ البدايات الأولى لتشكله. فهل من غرابة أن يحقق المسلمون مثل تلك الإنجازات المذهلة في حروبهم؟ لعل أبرز ما يظهره فن الحرب في العصر العباسي بعد ذلك هو ذلك التصميم العنيد على الاستمرار في خوض الصراع حتى نهايته، ففي وسط العواصف الهوجاء التي كانت كافية لتنال من أقوى الرجال عزيمة وأكثر الرجال تصميماً، وقف المسلمون بعناد - بداية من الخليفة وحتى آخر مجاهد في سبيل الله - وهم على استعداد دائم للقتال، وللتضحية بكل ما يملكون، سواء للحرب على الجبهة الخارجية أو على الجبهة الداخلية فالجبهتان بالنسبة للإنسان المسلم هما جبهة واحدة طالما أن الهدف واحد - كما سبق ذكره -. فأي مجتمع

هذا الذي بعثه الإسلام؟ وأية قوة هذه التي أوجدها في النفوس؟ إنه الرصيد المعنوي الهائل الذي أقرّه الإسلام في قلوب المؤمنين والذي لم تحاول دراسات علم النفس وتطبيقاته الحديثة أكثر من بلوغه والوصول إليه فقصرت في كثير من الأحيان عنه. ولقد حاول اعداء الإسلام والمسلمين على الجبهتين الداخلية والخارجية ـ في الحروب النظامية والحروب الثورية ـ محاكاة المسلمين في استنفار مصادر الإيمان، وسرعان ما انكشف انتحال الإيمان أمام الإيمان الصادق، وسرعان ما تبين الفارق بين الصدق والخداع، بين ما يقر في القلب فيحرك الإنسان بكل طاقته، وبين ما يدغدغ العواطف أو يلمس العقل، ثم ينكشف عن غثاء أحوى.

٩ ـ التجربة التاريخية للعصر العباسي.

قد يكون ما سبق ذكره برهاناً كافياً على مدى الأهمية التي يمثلها (فن الحرب في العصر العباسي) وفي الواقع، فالإنسان العربي ـ المسلم ـ خاصة ـ يعرف الكثير عن عصر النبوة الأولى وهذا شيء مفروض لا جدل فيه ولا نقاش ـ ثم يجهل في كثير من الأحيان ما حدث بعد ذلك من تطورات في كافة المجالات. سواء في العصر الأموي، أو في العصر العباسي. أو ما جاء بعدهما من عصور ودهور. وقد أفاد كثير من الباحثين ـ المستشرقين والمستغربين ـ من هذا الضعف في المعرفة، فأسهموا في اسدال ستار كثيف على كل ما هو مشرق في هذه العصور، وفسّروا الأحداث تفسيراً جزئياً يتطابق وأهدافهم من البحث، وهل يعرف كثير من العرب المسلمين عن عصر الرشيد ـ مثلا ـ ما كان عليه هذا الخليفة من التقى والورع وما بذله من جهد لإعزاز الإسلام والمسلمين؟ وهل يعرف الإنسان العربي ـ المسلم اليوم ما بذله المسلمون من جهد كبير للمحافظة على طهر الإسلام ونقائه في حروبهم الداخلية والخارجية؟ وهل هناك من يعرف عن ثورة القرامطة ـ إذا سمع بها ـ إلاّ أنها حركة اشتراكية مبكرة تمخضت عن فشل النظام الإسلامي في تحقيق العدالة الاجتماعية بحسب المفاهيم والقيم الحديثة؟ وهل عرف أي مسلم أن هذه الحركة التي أقضت مضجع الدولة العباسية لم تكن أكثر من نوع من أنواع الردة للجاهلية. وأن ما يقال عن اشتراكيتها ليس أكثر من تحلل من الالتزامات النبيلة التي فرضها الإسلام على الإنسان المسلم؟ وهل يمكن بعد ذلك فهم الجانب النبيل من (حروب الايمان) إن لم تتم مطالعة ومعرفة الوقائع على نحو ما حدثت في إطاريها الزمني والمكاني؟.

هنا تظهر أهمية دراسة هذه الوقائع من زاوية (فن الحرب) إذ إن التعامل مع هذه الأحداث المختلفة من خلال (هدف الحرب) ومن خلال (طرائق الحرب وإدارتها) هو الذي يساعد على وضع هذه الأحداث والوقائع في موقعها الصحيح من فن الحرب الإسلامي، وهو الذي يتجاوز الجزئيات ـ دون اهمال او

اسقاط لها ـ ليضعها في إطارها العام زمنياً ومكانياً. وبذلك تتوافر الفرصة لاستقراء معالم التطور بموضوعية وبعيداً عن الإثارة العاطفية أو التعليلات المنحرفة والتفسيرات الخاطئة.

إن التعلّق بهدف الحرب ـ على سبيل المثال ـ هو الذي يفسر بما لا يدع مجالاً للريبة أو الشك ـ سبب نكبة البرامكة والتي طالما احيطت بتفسيرات شتى كثيراً منها ما كان بعيداً عن الحقيقة وعن الموضوعية. فقد عرف الرشيد أن اولئك النفر من أهل خراسان بداية من أبي سلمة الخلال وأبي مسلم الخراساني ونهاية بالبرامكة. وقد يكون هؤلاء ـ كما وصفوا ـ ممن صحّ اسلامهم والله بهم أعلم، غير أنه ثبت أنهم كانوا يشكلون حماية لحركات منحرفة عن الإسلام مثل الزنادقة وسواهم. فكان (هدف الحرب) وهو اعزاز الإسلام والمسلمين والمحافظة على نقائه سبباً فيما حدث.

وكانت تلك الغزوات الضارية التي قادها الرشيد الى هرقلة والمعتصم الى عمورية تسير في الإطار ذاته، ولم ينظر الرشيد، ولا المعتصم الى القضية على أنها استفزاز شخصي لا يستحق الرد، أو أنها مجرد استغاثة لامرأة هاشمية مسلمة. وإنما كان الرشيد يمثل كل المسلمين، وكانت المرأة الهاشمية تمثل كل امهات المسلمين. فلا غرابة إن خرج الحسام من غمده ولم يعد حتى حقق هدف الهدف، وحتى استوت الأمور كما ارادها الإسلام. وقد يقال ان الخلفاء من بني العباس، وقبلهم خلفاء بني أمية، قد جردوا السيوف ضد مسلمين اشتهروا بصحة اليقين وبصدق الإيمان ـ مثل الخوارج ـ ومثل بعض ابناء عمومة بني العباس من سلالة علي بن أبي طالب رضوان الله عنه. وهنا يعود هدف الحرب ليفسر بصورة علمية وضمن إطار: (الفتنة أشد من القتل) فكيف إن كان ضحية هذه الفتنة هم المسلمون ذاتهم؟ أليس من الحق استباق الأحداث والتضحية بالجزء حماية للكل؟ وبعد ذلك أيضاً، وعندما قام الزنج بثورتهم، وتبعتهم حركة القرامطة، أفسح امراء بني العباس المجال الرحب للتوبة والإنابة في الإطار ذاته ـ حقن دماء المسلمين ـ والقضاء على الفتنة والانحراف بالحد الأدنى من الجهد ومن التضحيات. أليس ذلك في إطار هدف الحرب ذاته؟

وهنا لا بد للإنسان المسلم وأن يشعر بالألم يعتصره، وهو يطالع محاولات فئات من المسلمين لتحريف (هدف الحرب) وكيف أدى هذا التحريف الى الانحراف المريع، ثم كيف أدى هذا الانحراف لاستنزاف الكثير من قدرة الإنسان المسلم. ويتساءل: ألا تشكل هذه الانحرافات والدروس المستخلصة منها عبرة لمن أراد أن يتذكر؟ ألم تكن هذه التجارب ـ في إطار الحروب الداخلية ـ كافية حتى يعرف الجميع أن الخروج عن تعاليم الإسلام لم يضر الإسلام شيئاً، وإنما أضر المسلمين الذين خرجوا جميعاً بخسائر لا تقدر بثمن؟ وأنه كان بالمستطاع توفير هذا الجهد للحروب الخارجية؟ إن هدف البحث التاريخي ـ وكل بحث تاريخي ـ هو التعلم من التجربة الذاتية، ومعرفة مواطن الخطأ والصواب، والسير على هدى ـ ﴿أفمن يمشي مكباً على وجه أهدى أمن يمشي سوياً على صراط مستقيم﴾ ـ؟. وإذا لم يتعلم من تجربته الذاتية، فمن أية تجربة ستتعلم الأجيال؟ ولو لم يكن في التجربة العباسية غير هذا الدرس لكان حرياً بالبحث والدراسة وبذلك الجهد، فكيف وقد ضمّت التجربة العباسية دروساً ثرة في كل مجال؟. لقد ترك لنا الأجداد إرثاً ضخماً، وهو إرث احتفظ بكل قيمته، وبكامل أهميته، وقد دفع الأجداد ثمن هذا الإرث ثمناً غالياً من حياتهم ومن دمائهم ومن جهودهم وتضحياتهم، ومن أموالهم وثرواتهم. وقد يكون من ظلم الإنسان لنفسه ألا يفيد مما وصل إليه من الارث لتجنب صراعات قد برهنت التجربة التاريخية على عقمها. فالإسلام أقوى من اعدائه دائماً. والإسلام اسمى وأرفع من أن يناله متطاول. وعند هذه الحقيقة الثابتة، وعند ادراكها واستيعابها يتسامى المسلمون عن الاحتكام للسلاح في حل تناقضاتهم ـ إذا ما كان لتلك التناقضات حجّتها وذريعتها.

وتحتفظ التجربة العباسية بكثير من أهميتها في مجال فن الحرب، فهنا تظهر كفاءة القادة في تطوير مبادىء الحرب وتطبيقها بحسب المواقف والظروف، سواء في الحرب النظامية أو في الحروب الثورية ـ الداخلية ـ. ولقد حاول القادة عبر حوار الإرادات المتصارعة. إعطاء مبادىء الحرب اشكالاً متقدمة. وبالرغم من ذلك. فقد بقيت هذه المبادىء بصورتها المبسّطة وغير المعقّدة تعقيداً كبيراً، مما يساعد على إدراك ومعرفة هذه المبادىء بصورها الأساسية. وهذا بدوره مما يساعد على تقويم هذه المبادىء تقويماً

صحيحاً عند ربطها بما وصلت إليه في الأزمنة الحديثة من حيث التعقيد ومن حيث الأشكال المركّبة لهذه المبادىء، بحيث كان ارتباط هذه المبادىء بعضها ببعض ـ في أيام العصر العباسي كما هو اليوم ـ المقياس الصحيح لمعرفة الطريقة ـ أو النهج ـ التي سارت عليها هذه المبادىء في تطورها الى أن وصلت ما وصلته، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية فإن استقراء عملية التطور والربط تظهر ذلك التلاحم الوثيق بين مبادىء الحرب ـ في القديم كما في الحديث، بحيث يؤدي النجاح في تطبيق مبدأ من المبادىء ـ مثل استخدام القدرة القتالية المتوافرة في الهجوم ـ الى تعزيز بقية المبادىء ودعمها. فيما يؤدي الفشل في تطبيق مبدأ من المبادىء ـ مثل اهمال مبدأ ضمان أمن القوات ـ الى فشل مركب في تطبيق بقية المبادىء وهكذا ترفد المعرفة التاريخية لهذا التطور القدرة على استنباط ما هو أكثر تعقيداً، وما هو أكثر تركيباً في أشكال هذه المبادىء وطرائقها مما يتناسب مع الظروف المستجدة باستمرار. وقد يكون من أول الأهداف في البحث التاريخي هو اكتساب المرونة الكافية لتلبية المتطلبات المستحدثة، وعدم الالتزام بالقوالب الفكرية الجامدة، أو الأخذ بهذه القوالب ـ التي تمثل المبادىء العسكرية ـ أو مبادىء الحرب ـ بشكلها المدرسي، وبعيداً عن جذورها المرنة.

إن هذه المرونة الفكرية التي تقدمها التجربة التاريخية ـ للعصر العباسي كما لكل عصر ـ لا تقتصر على مبادىء الحرب، بل تشمل كل معطيات الحرب وكافة اسسها ومقوماتها ـ وقد يكون في طليعتها تلك العلاقة بين المجتمع الإسلامي وقواته المحاربة من جهة، والقوات المحاربة بعضها مع بعض. ولقد ظهر في مرات كثيرة ذلك الموقف المتسامح الذي وقفه أمير المؤمنين من قادة الثورات الداخلية، حيث تجاوز كل ما ارتكبوه من جرائم وآثام بحق الأمة الإسلامية وأفسح لهم مجال التوبة والرجوع عن الخطأ ـ فتم بذلك اصلاح الآلاف وعشرات الآلاف ممن سارعوا لاغتنام الفرصة والتكفير عن جرائمهم بحق مجتمعهم. ومقابل ذلك، أظهر قادة الثورات عامة المزيد من التصلّب والمزيد من التشدد في علاقاتهم مع المجتمع الإسلامي، مما أكسبهم المزيد من العداء، أفلا يعتبر بعد ذلك ما أظهره قادة المسلمين من تسامح هو عاملاً من عوامل نجاحهم بينما كان الفشل من نصيب قادة الثورات بسبب تصلبهم وعنادهم؟

ألم تكن تلك العقلية المغلقة، هي العامل الأول في فشل قادة الحروب الثورية وعجزهم عن استثمار نجاحاتهم الأولى التي ما جاءت إلاّ بسبب ما أظهروه من المرونة عند انطلاقة ثورتهم؟.

إن الانفتاح الفكري للمجتمع الإسلامي ولقادة المسلمين والذي أمكن التعبير عنه ـ بكلمة التسامح ـ لم يكن حالة من الضعف أو التخاذل، وإنما كان ظاهرة ملازمة لسياسة الفتوح باستمرار. فلقد كان الهدف من الحرب هو الوصول الى غاية السلم. وبكلمة أكثر وضوحاً بناء المجتمع الإسلامي وحمايته ـ على نحو ما سبق ذكره ـ ومقابل ذلك فإن حالة الانغلاق الفكري التي عاشتها الحركات الثورية في المجتمع الإسلامي إنما كانت نتيجة طبيعية أيضاً لغاية الحرب. وهي هنا التدمير للمجتمع الإسلامي ـ العباسي ـ. فكان عدم التسامح والحقد والكراهية وسواها من الصفات الملازمة للتدمير والمعبرة عن الضعف في الفكر. فكان من المتوقّع، رغم تمكّن الحركات الثورية من البقاء والاستمرار لفترات متطاولة أن ينتهي بها الأمر الى الانتحار الذاتي والى الاضمحلال، حيث حملت في بذور حياتها عوامل موتها. وهذا الاقتران بين الفكر والقوة، بين الكتاب والسيف، هو من جملة ما يمكن استخلاصه أيضاً من تجربة الصراع المسلح في العهد العباسي.

إن حالة الانفتاح الفكري التي عرفتها الدولة العباسية وعاشتها، هي البرهان الأكثر وضوحاً على قوة الدولة العباسية ـ الإسلامية ـ وشبيه امر هذه الدولة بحال دول كثيرة مما هو معروف في الأزمنة الحديثة، فالدول العظمى قد تضم من المتناقضات ما لا يمكن حصره ـ فمشكلة الملونين في الولايات المتحدة الأمريكية، ومشكلات الأقليات الكثيرة في المجتمع الأمريكي والكندي والمجتمعات الغربية عامة ـ وبالرغم من ذلك، وبالرغم من التظاهرات التي تتكرر كل يوم والتي تضم مئات الألوف. وبالرغم من ظواهر العنف التي تصل الى حافة الثورة المسلحة، وبالرغم من تعاظم النزعات الاستقلالية في بعض الأقاليم ـ ايرلندا في بريطانيا والباسك في إسبانيا، فإن هذه الدول العظمى تخرج من أزماتها باستمرار وهي أوفر تماسكاً وأشد تلاحماً. ولقد وصل التمزّق في فرنسا على

اثر الثورة الجزائرية وانتصارها، ووصل الأمر في أمريكا على أثر انتصار الثورة الڤيتنامية الى خلق حالة من الانهيار التام على الجبهة الداخلية سواء في فرنسا أو في أمريكا. وظهر وقتها أنه من المحال إعادة ترميم هذين المجتمعين وإعادة التماسك إليهما. ولكن لم تمض أكثر من سنوات قليلة حتى عادت الجبهتان الداخليتان في الدولتين المذكورتين إلى أفضل مما كانتا عليه من قبل. بينما يتطور الأمر على النقيض تماماً في الدول الضعيفة أو الصغيرة. حيث تؤدي التناقضات الى تفجر صراعات دموية تبدأ من حيث لا يدري أحد، ثم لا أحد يعرف كيف تنتهي. ومثال ذلك الحرب اللبنانية، والحرب العراقية ـ الايرانية. ذلك أن مثل هذه الدول ـ الهشّة أو الضعيفة ـ تجد نفسها مختبراً للدول العظمى لتجربة النظريات والأسس والأسلحة الخ... ويؤدي هذا التدخل الخارجي الى ظهور مركبات يستعصي حلّها. بينما تبقى الدول الكبيرة ـ نسبياً ـ أكثر قدرة على حل مشكلاتها بنفسها، وعدم السماح للتيارات أو القوى الأجنبية للتدخل في شؤونها. وهكذا، وعلى الرغم من تضافر الجهود الخارجية والجهود الداخلية لإيقاف حركة الدولة العباسية ـ الإسلامية، وبالرغم من وفرة المعوقات والعقبات. فقد استطاعت المضي على نهجها، وأمكن لها ايجاد الوسائل للتغلب على كل عقبة من العقبات وتجاوز كل معوق من المعوقات. وهكذا بقيت الدولة العباسية على استطالة أمدها وعلى امتداد أجلها في حالات متناوبة من الصعود والهبوط، من القوة والضعف، من التماسك والتفكك، ولهذا كانت عرضة بصورة مستمرة لإعادة التنظيم في كافة أمورها الاجتماعية والاقتصادية والسكانية ـ الديموغرافية ـ شأنها في ذلك شأن كافة الدول العظمى التي عرفها العالم في القديم والحديث. ويشكل هذا التنوع والتباين في حد ذاته منهلاً ثراً للتعلم من رحاب التجربة التاريخية، ولئن حددت محاولات التعلم هنا من مجال (فن الحرب) مع ما يشتمله هذا الفن من مقومات اجتماعية واقتصادية وفكرية وتنظيمية، فإن للمجالات الأخرى أيضاً عطاءاتها الخيرة، والتي ترفد المعرفة بكل ما هو مفيد وممتع. ولكن لا بد من الإشارة الى ضرورة التمييز الواضح بين التعلم من التجربة التاريخية، وبين اسقاط خلاصة التجربة التاريخية على أحداث العصر. إذ ليس ما هو هناك أكثر خطراً من محاولة العيش في الماضي، لاسيما إذا كان هذا العيش يحمل

عوامل مدمرة أو لا تواكب متطلبات العصر. وعلى سبيل المثال: فإن تلك الحروب والصراعات المحدودة ـ او الحروب على الجبهة الداخلية، قد أخذت أشكالها من خلال ظروف زمنية ومكانية معينة ولا ريب أن المحاولات لبعث تلك الأشكال في ثوب متجدد، على نحو ما عرفته الساحة اللبنانية خلال سنوات الصراع المرير (١٩٧٥ ـ ١٩٨٦) والتي قد تستمر لحقبة أخرى هي محاولات عقيمة، إذ من المحال الأخذ بتجارب برهن التاريخ في تجاربه المتتالية على خطئها وعقمها. وصحيح أن تجارب الماضي تعيش في استطالات المستقبل، ولكن هل تعيش بأثوابها ومفاهيمها وقيمها على نحو ما كانت عليه. وعلى سبيل المثال: فقد كانت دولة الروم ـ البيزنطيين ـ تتاخم حدود الدولة العباسية ـ الإسلامية ـ فأين هي دولة الروم؟ بل أين هي دولة العباسيين ذاتها؟ ولقد كانت حركة القرامطة والتي أخذت بعد ذلك اسم حركة الحشاشين، قد نشرت فروعها من (ألموت) الى سائر أرجاء الدولة العباسية. فأين هي قاعدة الحشاشين؟ ثم هل سيقوم المغول ـ التتار ـ بغزوة جديدة من اعماق التيبت لتجتاح آسيا وأوروبا كالإعصار المدمر ـ في العصر النووي؟ وهل التكون الجديد للدول العربية ـ الإسلامية في ظل التجزئة، وفي عصر حكم الدولتين العظميين مماثل لما كان عليه في العصر العباسي عندما كانت هذه الدولة اعظم دولة في عصرها؟ وهل التكون السكاني ـ الديموغرافي ـ في الأزمنة الحديثة مماثل لما كان في العصر العباسي؟ تلك هي بعض المتغيرات لا كلها. وإن من يريد العيش بالماضي، متجاوزاً معطيات العصر، لن يتمكن من البقاء والاستمرار. وعلى هذا تبقى التجربة التاريخية هي الموجه، وهي الدليل الذي يفسّر وينير ظلمات المستقبل المجهول، ولكن هذه التجربة لن تكون بحال من الأحوال هي الحاضر أو المستقبل.

١٠ ـ الحرية الفكرية والبحث التاريخي.

ما كان للتجربة العباسية أن تصل بكل دفئها وبكل تفاصيلها المثيرة لولا تلك الأمانة التي اشتهر بها المؤرخون من العرب المسلمين، ولولا ما توافر لهم من مناخ الحرية الفكرية التي سمحت بتسمية الأشياء والأحداث بأسمائها وبصفاتها وبوقائعها. ولقد كانت تلك الحرية الفكرية هي المناخ الذي ترعرعت فيه وازدهرت كافة العلوم النظرية والعملية، ومن بينها التاريخ، حيث كان المؤرخون يتعرضون لأحداث عصرهم دونما خوف أو تردد، وهم يذكرون للزنج أعمالهم وللقرامطة دورهم وللشيعة اعتقادهم وممارساتهم، وللدولة إنجازاتها وأخطاءها، وللخليفة أمير المؤمنين فضائله ونقاط ضعفه وحتى انحرافه أو تقصيره. وكل ذلك بدقة مثيرة، حتى لكأن الباحث يعيش تلك الأحداث، ويخالط أصحابها وصانعيها، فهل من غرابة أن استطاع الفكر العربي ـ الإسلامي ان يتطور وقد اتيحت له الفرصة للتطور في كل مجال من مجالات العلوم والآداب والفنون؟. لقد بات معروفاً في عالمنا المعاصر أنه من المحال تحقيق أي تطور أو إحراز أي تقدم في أي مجال من المجالات إن لم تتوافر مجموعة من العوامل تحتل الحرية الفكرية المرتبة الأولى منها. وإذن فليس باستطاعة الباحث في الأزمنة الحديثة، وبعد انقضاء زهاء عشرة قرون من عمر الزمن على تلك الأحداث التاريخية، أن يحاول الالتفاف من حول الأحداث أو اعطائها اسماء غير اسمائها تحت أية حجة ولأي سبب، أو الإشارة الى التسميات بحذر كبير، وعلى سبيل المثال: فإن ذكر الشيعة أو القرامطة او العلويين لا يعني بالضرورة ارتباط التسميات الحديثة بما كان سائداً في ذلك العصر. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإن استعراض أعمال المذاهب المختلفة يظهر أنها بدأت تحت ستار ديني ثم لم تلبث أن تحوّلت الى مذاهب فكرية سياسية. وذلك بدلالة اعتماد الخليفة أمير المؤمنين على نقيبين: نقيب للشيعة ونقيب للسنة. وكذلك الأمر بالنسبة للوزارة، حيث كان للخليفة العباسي وزير شيعي ووزير سني. وقد ظهر ان ما كان يحدث من انحراف وصراعات، إنما كان يعود للمرحلة

الزمنية التي اتاحت الفرصة لظهور تلك الصراعات بينما كانت هذه الصراعات تختفي عندما كان يمسك بالسلطة رجل قوي. وطالما ان القضية المذهبية قد تحوّلت الى قضية سياسية، أو قضية حكم، فقد يكون من غير الطبيعي الانتصار لقضية سياسية مضى عليها من الزمن أكثر من عشرة قرون.

لقد بات معروفاً أن مؤرخي المسلمين لم يكونوا جميعاً متّفقين على التعاطف مع هذا الخليفة أو ذاك. ولم يكونوا كذلك من المؤيدين لهذا القائد أو ذاك. بل كانوا أحياناً ضد هذا المذهب وضد أصحابه، ولكن ذلك لم يمنعهم من ذكر الحقائق كما نقلت إليهم من ثقاة الرواة أو على نحو ما عاشوها وسمعوها، بل كثيراً ما اتخذوا مواقف إيجابية في تسجيلهم لأحداث من يخاصمون ومن يعارضون، وكثيراً ما امتدحوا اعمال اعدائهم حتى لو كان هؤلاء من الروم أو من سواهم. ولقد أثارت هذه الحرية الفكرية مؤرخي الغرب وباحثيهم، حتى في الأزمنة الحديثة. وأقبلوا على التعامل مع مصادر التاريخ العربي ـ الإسلامي بما تستحقه من الاكبار والإجلال.

ويعود الإنسان العربي ـ المسلم، ويقف ذاهلاً أمام الأوابد التي تركها الأجداد، ويتساءل بصدق: هل كان بالمستطاع الوصول الى معرفة تلك الحقائق التاريخية، وهل كان بالمستطاع الإفادة منها واستنباط الدروس منها، لو لم تتوافر للأجداد تلك الحرية الفكرية؟ وإذن فمن الوفاء لإرث الأجداد، ومن الوفاء لجهد الأجداد بذل كل جهد مستطاع لمعالجة ما خلفوه ببعض من حرية الفكر التي توافرت لهم. وذلك بصرف النظر عن كل ما يقال من ـ الحساسيات والنعرات ـ.

لقد حاول الباحثون ـ المستشرقون والمستغربون ـ الإفادة مما تضمنه التاريخ العربي ـ الإسلامي للعصر العباسي. من حقائق للأخذ بما يسيء للإسلام والمسلمين ـ بحسب اعتقادهم ـ مع اغفال الإيجابيات او التعرض لها من بعيد وبشكل عرضي. ولكن هل كان باستطاعة مؤرخي المسلمين الاقتصار في تسجيلهم لأحداث التاريخ على كل ما هو جيد وكل ما هو إيجابي، وذلك حتى لا يجد أعداء الإسلام والمسلمين مطعناً أو مأخذاً يأخذونه على الإسلام وأهله؟ ولكن ماذا سيبقى من الحقيقة التاريخية إن اقتصرت على جانب واحد وإغفال بقية الجوانب؟ وهل يعمل مؤرخو الأزمنة الحديثة على سبيل

المثال ـ ذكر ما هو إيجابي فقط في حرب القوات الأمريكية في كوريا وڤيتنام ـ ام أنهم يعالجون السلبيات قبل تعرّضهم للإيجابيات؟ ثم هل أدى ذكر هذه السلبيات الى تطور أفضل ام أنه جاء بنتائج أسوأ؟ عند الإجابة على هذه التساؤلات وأمثالها يظهر فضل مؤرخي العرب المسلمين، ليس على الأجيال التالية من العرب المسلمين وإنما على الإنسانية جمعاء حيث قدم مؤرخو العرب المسلمين، للإنسانية تجربة حيّة عاشت قروناً عديدة وحفلت بكل ما هو جدير بالتعلم من تلك التجربة، بسلبياتها وإيجابياتها، بقوتها وضعفها، بكل ما لها وما عليها.

لقد تضمنت قصص القرآن الكريم ما حدث في بدر وحنين وسواهما من أخطاء. وما ارتكبه المسلمون، وما كانت عليه نفوسهم، فهل ضرّ ذلك المسلمين او آذاهم؟ وهل كان باستطاعة مؤرخي المسلمين وأكثرهم ـ إن لم يكونوا جميعاً ـ من الفقهاء والعلماء أن يخرجوا عن نهج القرآن الكريم في بحثهم وتسجيلهم لأحداث التاريخ؟. وهل باستطاعة الخلف الخروج على نهج السلف الصالح؟. أم أن السلف مطالبون بممارسة عملهم بأكثر ممّا كان ملزماً به السلف، نتيجة تطور القيم الحضارية؟

وبعد، فلطالما تعرضت تجربة العصر العباسي للكثير من الطمس والتغيير والتحوير، وجاء المفسّرون من المذاهب المختلفة والمحلّلون من المشارب المتباينة، ليعطوا أحداث ذلك العصر تفسيرات وتحاليل هي أكبر ـ أو أصغر ـ مما تحتملها. ويأتي فن الحرب بعوامله المتكاملة ليقدم التجربة التاريخية بأحداثها الواقعية، وليفسرها تفسيراً علمياً عند ربطها في إطاريها الزمني والمكاني، بمجموعة التطورات السابقة أو اللاحقة لها. وبذلك يزول كل لبس أو غموض قد يأتي عند التعامل مع الجزئيات فقط، وخاصة عندما توضع هذه الجزئيات بعيداً عن إطاريها الزمني والمكاني.

لقد ساء بعض أعداء الإسلام والمسلمين ما تضمنته التجربة التاريخية للعصر العباسي من إيجابيات، فمضوا في مكابرتهم الى حد إنكار التجربة التاريخية ذاتها، مع إثارة الشكوك بصحة ما لا يمكن الطعن بصحّته، وليست القضية هي قضية الدفاع عن التجربة التي مضت وانقضت، وإنما هي قضية محاولة فصل الأمة العربية ـ الإسلامية عن جذورها التاريخية التي قدمت للإنسانية كل عطاء خير. ولا يضر التجربة التاريخية

إن هي أهملت، إذ تبقى تجربة إنسانية وواقعية رغم كل جحود لها. وإنما تضر الأجيال ذاتها عندما تنفصل عن جذورها، فتجفّ منها الأوراق، وتنقطع عنها الثمار، وتسير بالتالي الى الفناء.

وتبقى التجربة التاريخية ليست خيراً كلها، وليست شرّاً كلها، فيها ما هو جدير بالتعلم، وفيها ما هو جدير بالتأمّل، وفيها ما قد تجاوزه الزمن. ولكن ليس من واجب الباحث الإعراض حتى على ما تجاوزه الزمن، إن كان فيه دروس تحتفظ بقيمتها وأهميتها. فليس هدف البحث التاريخي هو المتعة، وإنما الفائدة المقترنة بالمتعة.

لقد اتهم التاريخ الإسلامي - ظلماً - بأنه تاريخ الخاصة، واتهم التاريخ في العصر العباسي - بخاصة - بأنه تاريخ الانتصارات فقط. وأن المسلمين في تاريخهم لا يعترفون بالهزيمة. وفي الواقع فإن في مثل هذه الأقوال كثير من الظلم للتاريخ الإسلامي عامة وتاريخ العصر العباسي بخاصة، فقد حرص مؤرخو المسلمين على ذكر الانتصارات والهزائم على حد سواء. بل إنهم ذهبوا الى أبعد من ذلك عندما عالجوا أسباب الإنتصارات والهزائم. في إطار من المفاهيم الثابتة التي تنطلق - أو تلتزم - بحرية الفكر، مما أتاح لهم الإفادة من تجاربهم الذاتية. وقد ظهر ذلك في مرات كثيرة عند عرض الأحداث - في الفصلين الأول والثاني -. وهذه التجارب الذاتية هي الأشد لصوقاً والأوثق إحكاماً بواقع الأمة العربية - الإسلامية. وقد يكون من غير الطبيعي استلهام الدروس والعبر من تجارب بقية الأمم، وخاصة في مجال فن الحرب - وإهمال التجربة الذاتية التي توافرت لها من الدقة ومن الأمانة ومن الشمول، ما تفتقر إليه بقية التجارب، سواء منها القديمة أو الحديثة. وقد يكون باستطاعة القارىء أو الباحث التأكد من هذه الحقيقة عند التعرف على تجربته الذاتية. والإنسان عدو ما يجهل.

١١ ـ الأيام الأخيرة للعصر العباسي .

تم التوقف عند عرض الأحداث بابتداء الحروب الصليبية. ومعروف أن الدولة العباسية قد استمرت خلال هذه الحروب، وكان لها دورها الموجه للأحداث، مما سيدخل في تاريخ الحروب الصليبية ـ غير أنه بالإمكان القفز من فوق تلك الفترة للوصول الى الأيام الأخيرة التي عاشتها الدولة العباسية.

كانت قوات المغول ـ التتار ـ قد اجتازت نهر جيحون ـ أموداريا حالياً ـ في شهر كانون الثاني ـ يناير ـ ١٢٥٦ م (٦٥٤ هـ) بقيادة هولاكو ـ الذي كان يعتنق ديانة أجداده ـ الشامانية ـ فيما كانت زوجته طقزخاتون قد اعتنقت المسيحية ـ النسطورية وكانت شديدة الحقد على الإسلام بتحريض الفرنج وقساوستهم. وقد حدد هولاكو هدفه الأول بالاستيلاء على قاعدة الإسماعيلية ـ الحشاشين ـ الذين كانوا قد اغتالوا ثاني أبناء جنكيزخان ـ جغتاي ـ وكانت بغداد هي الهدف الثاني لتحرك هولاكو ـ على أن يتابع الجيش المغولي بعد ذلك تحركه لاجتياح بلاد الشام والقضاء على الإسلام، ونصرة الفرنج الصليبيين. وتم إعداد كل شيء بدقّة وعناية، فتقرر إصلاح الطرق التي تجتاز تركستان وبلاد فارس، وجرى تشييد الجسور، وتجهيز العربات اللازمة لجلب أدوات الحصار من الصين، وخلت المروج من القطعان، حتى تبقى الأعشاب اللازمة لخيول الجيش المغولي. واصطحب هولاكو معه زوجته طقزخاتون وزوجتين أخريين وولديه الكبيرين، وأرسلو باطو ـ الذي كان قد أسلم هو وقبيلته الذهبية ـ ثلاثة من أبناء أخيه فلحقوا بالجيش المغولي في فارس. وقدمت كل قبيلة من قبائل الحلف المغولي خمس رجالها المقاتلين. واشترك في الحملة نحو من ألف من الرماة الصينيين الذين برعوا في قذف السهام التي تحمل اللهب والنار. وكان قد حدث قبل ثلاث سنوات أن جرى إرسال جيش لتمهيد الطريق، وتولى قيادته أقرب القادة الى هولاكو ـ وأعظمهم موطناً لنفسه ولثقته ـ وهو كتبغا النسطوري الذي ينتمي الى عنصر النايمان والذي شاع أنه ينحدر من حكماء الشرق الثلاثة. والمعروف أن كتبغا أعاد

سلطة المغول على المدن الكبيرة بهضبة ايران، واستولى على بعض معاقل الإسماعيلية وقلاعهم قبل قدوم هولاكو. وقد حاول زعيم الإسماعيلية ـ ركن الدين خورشاه ـ أن يدرأ الخطر بما لجأ إليه من مؤامرات دبلوماسية، وأساليب مختلفة لصرف المغول عن أهدافهم، غير أن هولاكو مضى نحو أهدافه بتصميم وعناد. وتحرك بصورة بطيئة وعنيفة فاجتاز ديموند وعبّاس آباد ووصل الى الوديان التي كان قد اتخذها الإسماعيلية مستقراً لهم. ولما ظهر الجيش الضخم أمام عاصمة الإسماعيليين ـ قلعة آلموت ـ وأخذ يضيق الحصار على القلعة، لم يسع ركن الدين إلاّ التسليم، فقدم بنفسه في كانون الأول ـ ديسمبر ـ ١٢٥٦ م إلى خيمة هولاكو. وأعلن خضوعه وإذعانه. غير أن قائد حامية القلعة رفض تنفيذ ما أصدره إليه ركن الدين من أوامر لتسليم القلعة. فسقطت عنوة بعد بضعة أيام. وتلقى ركن الدين وعداً من هولاكو بالإبقاء على حياته، غير أنه طلب إليه التوجه الى قراقورم، لعله يحصل من الخان الكبير منكو على شروط أفضل من تلك التي أعطاه إياها هولاكو. ولكن عندما وصل ركن الدين الى قراقورم، رفض منكو مقابلته، وقال إنه من الخطأ إرهاق خيولنا الجيدة في هذه السفارة التافهة، على أن اثنين من حصون الإسماعيلية ـ وهما جردوه ولمبوذر ـ امتنعا على المغول، فجرى إخطار ركن الدين بالعودة الى فارس لحملهما على الاستسلام. ولكن ركن الدين لقي مصرعه مع أصحابه اثناء مسيره خائباً على طريق العودة. وصدرت الأوامر في الوقت ذاته الى هولاكو بالقضاء على الإسماعيلية وإبادتهم. وتقرر ارسال عدد من أقارب زعيم الإسماعيلية ركن الدين الى ابنة جغتاي ـ سالقان خاتون ـ كيما تنتقم منهم لمصرع أبيها، بينما تم استدعاء آخرين بحجة إحصاء عددهم، ودارت فيهم مذبحة هلك فيها الألوف منهم. ولم تنته سنة ١٢٥٧ م حتى لم يبق إلاّ عدد قليل من اللاجئين في جبال فارس. أما الإسماعيلية في بلاد الشام. فإنهم لم يكونوا في متناول منكو. ومع ذلك فإنهم باتوا يعرفون مصيرهم إذا ما وصلت إليهم يد المغول. وكان الإسماعيلية يحتفظون بقلعة آلموت بمكتبة ضخمة ضمت كتباً متنوعة في علوم الفلسفة والتنجيم والدين. فأرسل هولاكو حاجبه المسلم ـ عطا الملك الجويني ـ ليفحصها، فأخرج منها ما صادفه من نسخ القرآن الكريم، وسائر الكتب ذات القيمة التاريخية والعلمية، وأمر بإحراق بقية كتب

الإلحاد والكفر. ومن المصادفات الغريبة أن شب حريق كبير في تلك الفترة سببه البرق، فأحرق المكتبة وما ضمته.

لما فرغ هولاكو من استئصال الإسماعيلية من بلاد فارس، تحرك مع الجيش المغولي لمهاجمة بغداد. وكان الخليفة العباسي المستعصم بالله ابن المستنصر بالله - الثالث والثلاثين من خلفاء بني العباس - قد نجح في إعادة تنظيم الدولة ودعمها. إلاّ أنه كان يعتمد على وزيره الشيعي مؤيد الدين بن العلقمي الذي كان خصماً للحاجب السني ايبك. وكان باستطاعة الخليفة العباسي حشد جيش من مائة وعشرين ألف فارس، غير ان مؤيد الدين بن العلقمي اقترح عدم الاعتماد على الجيش - الذي لم يكن يثق به - وصرف الأموال لرشوة هولاكو وصرفه عن مهاجمة بغداد. غير أن هولاكو رفض قبول الاتاوة ما لم تقترن باعتراف الخليفة بسيادة المغول على الخلافة الإسلامية. ورفض الخليفة المستعصم بالله طلب هولاكو رفضاً شديداً، ولم يبق إلاّ الحرب. وهنا رجحت كفة الحاجب السني ايبك. الذي أخذ في الإعداد للحرب. وتحدث هولاكو إلى رجال الحملة في شيء من الاضطراب والقلق، إذ لم يجمع منجموه على ان النصر سوف يكون حليف الحملة. وكان يخشى الخيانة من قبل أتباعه المسلمين وتدخل أمراء دمشق ومصر. غير أن ما اتخذه من تدابير ضد ما أسماه خيانة المسلمين وغدرهم به كانت قوية وفعالة. فيما كان امراء دمشق ومصر قد شغلتهم الحروب مع الفرنج وصرفتهم عن نجدة بغداد. وفي تلك الفترة ازداد جيش هولاكو قوة بوصول بعض الكتائب من القبيلة الذهبية - وبقدوم الجيش الذي ظل بيجو - يحتفظ به على أطراف الأناضول في السنوات العشر الأخيرة. بالإضافة الى كتيبة من فرسان الكرج الذين تلهفوا على مهاجمة عاصمة المسلمين.

تحرك الجيش المغولي الضخم من قاعدته في همذان خلال الأيام الأخيرة من سنة ١٢٥٧ م وعبر بيجو بجيشه نهر دجلة عند الموصل. وسار إزاء الشاطىء الغربي للنهر. أما كتبغا فقد تولى قيادة الجناح الأيسر للجيش المغولي، ودخل سهل العراق الواقع شرقي بغداد مباشرة، بينما زحف هولاكو ومعه الكتلة الرئيسة للجيش - القلب - فاخترق كرمان شاه. وتولى ايبك قيادة جيش المسلمين وسار به لقتال هولاكو. وعبر

به نهر دجلة ، ولكنه لم يكد يمضي بعيداً حتى علم بانحدار جيش بيجو واقترابه من شمالي ـ غربي بغداد ، فاضطر لعبور دجلة من جديد ، وباغت المغول قرب الأنبار على بعد خمسين كيلو متراً تقريباً من بغداد ـ وهاجمهم بعنف يوم ١١ كانون الثاني ـ يناير ـ ١٢٥٨ م (٦٥٦ هـ) مما أرغم بيجو وجيشه على التراجع. وتقدم جيش العرب المسلمين خلف المغول التتار في أرض حافلة بالمستنقعات. وأفاد بيجو من ذلك فأرسل العمال الفعلة الى ما وراء جيش المسلمين لقطع السدود والجسور القائمة على نهر الفرات، وتجدد القتال في اليوم التالي ووجد ايبك نفسه مرغماً على التراجع نحو الحقول المغمورة بالمياه وطوقه المغول. فأبادوا جيش المسلمين، وتمكن أيبك من النجاة بنفسه وركب النهر الى بغداد. فيما لجأ من نجا من جيشه الى البادية.

ظهر هولاكو أمام الأسوار الشرقية لمدينة بغداد يوم ١٨ كانون الثاني ـ يناير ـ ١٢٥٨ م (٦٥٦ هـ) وتعرضت المدينة لهجوم من كل الجهات بعد إقامة جسور من القوارب على نهر دجلة وذلك في يوم ٢٢ كانون الثاني ـ يناير ـ وقاومت قوات المسلمين ببطولة رائعة هجمات المغول ـ التتار ـ وأوقعت بالمغول خسائر كبيرة، فيما استمرت الهجمات من أعلى المدينة وأسفلها. والمعروف أن بغداد تقع على ضفتي نهر دجلة. وكان القطاع الغربي الذي ضم المنازل الاولى للخلفاء العباسيين، أقل أهمية من القطاع الشرقي الذي ضم مباني أجهزة الدولة. ولهذا ركز المغول التتار هجماتهم على الأسوار الشرقية. وقد حاول المستعصم إنقاذ عاصمة المسلمين من اجتياح المغول لها. فأرسل في نهاية شهر كانون الثاني ـ يناير ـ وزيره الشيعي مؤيد الدين بن العلقمي والذي بقي مدافعاً عن سياسة المصالحة مع المغول، كما أرسل معه البطريرك النسطوري، وذلك للتفاوض مع هولاكو. غير أن هولاكو لم يقابل الرسولين، وردهما الى بغداد ، فيما كان الصراع المرير مستمراً ، وأخذ السور الشرقي لبغداد في التداعي بعد ان تعرض للقذف الشديد في الأسبوع الأول من شهر شباط ـ فبراير ـ حتى إذا ما كان يوم ١٠ شباط ـ فبراير ـ بدأت جموع المغول في التدفق الى داخل المدينة. وتقدم الخليفة المستعصم بالله ومعه كبار قادته ورجال دولته الى هولاكو الذي أمر بقتلهم جميعاً ، ما عدا الخليفة الذي احتفظ به الى أن دخل المدينة ونزل بقصره فأمر بقتله

(يوم ١٥ شباط ـ فبراير). وأثناء ذلك بقيت المذابح مستمرة في جميع انحاء المدينة، وتعرض للقتل على السواء اولئك الذين بادروا الى التسليم، واولئك الذين حملوا السلاح وقاتلوا. وهلك النساء والأطفال مع رجالهم، وعثر أحد المغول في أحد الشوارع الجانبية أربعين طفلاً حديثي الولادة، فأجهز عليهم ـ رحمة بهم ـ. وأظهر عساكر الكرج ما اختزنوه من حقد على المسلمين، فكانوا أول من اقتحم الأسوار، وأكثر من مارس القتل والذبح، فهلك في أربعين يوماً نحو ثمانين ألفاً من سكان بغداد. ولم يبق على قيد الحياة إلا فئة قليلة ساعدها الحظ فلم يكتشف المغول الحواصل التي اختبأوا فيها، فضلاً عن عدد من الغلمان والفتيان الذين أخذوا أرقاء. وكذلك الجالية المسيحية التي لم يتعرض لها أحد بسوء. وتابع المغول اعمال النهب والقتل والتدمير. فتم إتلاف آلاف الكتب الثمينة التي تجمعت في مكتبات بغداد على امتداد قرون. وألقي بالكتب والمخطوطات في دجلة، وبلغت رائحة الجثث المتعفنة بالمدينة من النتن ما دفع هولاكو الى سحب جيشه من بغداد في نهاية شهر آذار ـ مارس ـ ١٢٥٨ خوفاً من التعرض للوباء. وصار بحوزة هولاكو وجنده ما ضمته عاصمة المسلمين من ثروات وكنوز تجمعت فيها خلال مئات السنين. وأرسل هولاكو قسماً كبيراً من الغنائم الى أخيه الخان الكبير منكو، وانسحب راجعاً الى همذان. وسار منها الى اذربيجان حيث شيد قلعة منيعة في (شها ـ على شاطىء بحيرة أرمية) وجعل منها مستودعاً لكل ما استحوذ عليه من الذهب والجواهر الثمينة. وجعل على بغداد والياً هو الوزير الشيعي السابق مؤيد الدين بن العلقمي. أما البطريرك النسطوري ـ ماكيكا ـ فغمره هولاكو بالاحباس، وجعل له أحد قصور الخلفاء مقراً وكنيسة. وأخذت بغداد في استعادة نظافتها رويداً رويداً، غير أنها لم تعد بعد أربعين سنة سوى مدينة اقليمية لا يتجاوز حجمها مقدار عشر حجمها السابق.

ابتهج المسيحيون في كل مكان بآسيا لذيوع نبأ تدمير بغداد، وكتبوا وهم في نشوة النصر عن سقوط بابل الثانية، وهلّلوا لهولاكو وطقزخاتون واعتبروهما قسطنطين وهيلانة، وأنهما ليسا إلاّ أدوات الله للانتقام من المسلمين. هذا فيما اجتاحت العالم الإسلامي موجة عميقة من الحزن والغضب. فلقد حوصر المسلمون بالفرنج والمغول

وظهر للحظة ان العالم الإسلامي قد وصل الى نهايته. وتابع المغول اجتياح بلاد الشام، يخربون ويدمّرون ويقتلون، واصطدموا بمقاومة ضارية وخاصة في حلب وحارم ودمشق. وأثناء ذلك تقدم جيش المسلمين من مصر، وخاض معركة (عين جالوت) التي مزقت ولأول مرة جيش المغول، وانتهت بقتل القائد كتبغا ومعظم جيشه. وأعقب ذلك خلاف بين المغول ذاتهم حيث غضب المسلمون ـ من القبائل الذهبية ـ لما نزل بإخوانهم المسلمين في كل مكان ووقع الصدام بين الخان بركة الذي اخذ في اضطهاد المسيحيين، وانتصرت قوات الخان بركة على جيش هولاكو ـ وزال الخطر الذي كان يتهدد المسلمين الذين انتقلوا بقيادة الظاهر بيبرس للهجوم على الفرنج وبقايا التتار.